الفصل الخامس
التاريخ

(أ) كتب التاريخ العام

١- عصر الخلافة

ف ٦٢: عبد الملك بن حبيب.

ف ٦٣: آل الرازي.

ف ٦٤: الأخبار المجموعة.

ف ٦٥: (أ) «تاريخ افتتاح الأندلس»، لأبي بكر ابن القوطية.

ف ٦٥: (ب) عُرَيْب بن سعد.

٢- عصر الطوائف

ف ٦٦: أبو مروان حيَّان بن خلف بن حسين بن حيَّان.

ف ٦٧: محمد بن مزين، ابن مسلمة، ابن أبي الفياض.

ف ٦٨: ابن حزم القرطبي.

ف ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢: آثار ابن حزم في الفلسفة والفقه وعلوم الدين والتاريخ.

ف ٧٣: كتاب الفصل.

ف ٧٤: آثار ابن حزم الأدبية: «طوق الحمامة».

ف ٧٥: مدرسة ابن حزم.

ف ٧٦: أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن ساعد الطليطلي.

ف ٧٧: تواريخ الدول.

٣- عصر المرابطين والموحدين

ف ٧٨: ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن علي بن إبراهيم أبو مروان

الباجي.

ف ٧٩: بنو سعيد.

ف ٨٠: عبد الواحد المراكشي.

٤- مملكة غرناطة

ف ٨١: ابن الخطيب.

ف ٨٢: عبد الرحمن بن خلدون.

(ب) التراجم وفهارس الكتب

ف ٨٣: ابن عبد البر والخشني.

ف ٨٤: ابن الفرضي، الحجاري.

ف ٨٥: ابن بشكوال ومصادره.

ف ٨٦: ابن الأبّار.

ف ٨٧: ابن خير.

ف ٨٨: معاجم التراجم الخاصة: القاضي عياض، ابن دحية.

(جـ) تاريخ الأدب

ف ٨٩: طلائع المؤلفات في تاريخ الأدب.

ف ٩٠: ابن بسّام.

ف ٩١: ابن خاقان.

ف ٩٢: الشقندي.

ف ٩٣: ابن الخطيب، والمقري.

(د) تواريخ النواحي

ف ٩٤: أهم نماذج المؤلفات في هذا الباب.

(أ) كتب التاريخ العام

١ـ عصر الخلافة

عبد الملك بن حبيب - آل الرازي - الأخبار المجموعة - «تاريخ افتتاح الأندلس» لأبي بكر ابن القوطية عُرَيْب بن سعد - ابن شهيد

لدينا في ميدان التآليف الأندلسية في مادة التاريخ كتب متأثرة بعناصر مشرقية، ويفيض هذا الصنف بأساطير لا نهاية لها تدور حول فتح المسلمين للأندلس (ومثالها مؤلفات ابن حبيب والرازي)، ومؤلفات أخرى تنقل إلينا الروايات الأندلسية المحلّية على صورة أدق وأحكم، بعضها يأخذ جانب بني أمية (كما نرى في الأخبار المجموعة)، وبعضها الآخر نلمح فيه الميل إلى أسرة غيطشة (كابن القوطية)، وإلى جانب ذلك نجد في هذا العصر كُتبًا في التاريخ العام أخذ بعضها عن الطبري (كما نرى عند عريب بن سعد)، وبعضها الآخر جديد مبتكر فيما يبدو (كما نجد عند ابن شهيد).

❁❁❁❁

ف ٦٢ - عبد الملك بن حبيب

أقدم مؤرخي الأندلس الإسلامي هو عبد الملك بن حبيب (١٧٩/٧٩٦ - ٢٣٨/ ٨٥٣ أو ٨٥٤م)، الذي يقال : إنه ينتسب إلى قبيلة سليم بن منصور، وقد وُلد في حصن واط (ربما كانت هذه البُلَيْدة هي Huetor Vega)، وعاش في إلبيرة وقرطبة صدر شبابه وفيهما درس، ثم رحل إلى المشرق وتردد على حلقات الدرس هناك، وخاصة في المدينة ؛ حيث درس الفقه على مذهب مالك بن أنس وأصبح من كبار أنصاره، وسيصبح فيما بعد من أكبر العاملين على تحويل أهل الأندلس إلى المالكية بعد أن كانوا أوزاعية (ف ١٢٤).

كان عبد الملك بحرًا من العلم بالشعر والأنساب والتاريخ والفقه والمعاجم والطب، وقد أدرك في الأندلس شهرة واسعة ولقّبه الناس «بعالم الأندلس»[1] وجعلوه صنوًا لسُحْنون بن سعيد إمام المالكيين في المغرب وعالمه. ثم جلس للتدريس في مسجد قرطبة، وكان يقسِّم طلبته مجموعات لا يُسمعهم إلا كتبه وموطأ مالك. وكان يجلس للإقراء في ملابس غالية بعضها من «الصيدي» وهو حرير ينسج في اليمن، وكان يرى ذلك توقيرًا وإجلالاً للعلم الذي يُقرِئُه، وأوقف أملاكه كلها على مسجد قرطبة قبل وفاته.

ولعبد الملك بن حبيب كتب كثيرة يرد ذكرها في تراجمه، بعضها في الأنساب والفلك والطب والأخلاق والشريعة، وألف «الواضحة» التي تعتبر أحسن شرح على موطأ مالك، وقد ضاع معظم كتبه ولم يبقَ منها إلا الكتاب المسمى بـ: «التاريخ»، ولا زال مخطوطًا في المكتبة البودلية في أكسفورد، وعنوانه كما يرد في هذه المخطوطة هو: «كتاب في ابتدا خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها من ابتدا خلق السماوات وخلق البحار والجبال والجنة والنار، وخلق آدم وحوّاء وما كان من شأنهما مع إبليس، وعدة الأنبياء نبيًا نبيًا إلى محمد ﷺ وعليهم أجمعين، وعدة الكتب المنزّلة وعدة الخلفاء إلى حين استفتاح الأندلس، وما وجد فيها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت والزمرد والأمتعة وما أخرج منها، وعدة ملوكها ومَن وليّها ومَن يليها وذكر شيء من الحدثان وما يعلم منها في بعض البلدان، وكم عمر الدنيا وما مضى منها وما بقي إلى أن تقوم الساعة. تأليف الفقيه عبد الملك بن حبيب رضي الله عنه وفيه ذكر القضاة - قضاة قرطبة - لابن حارث»[*].

ونجد في الورقة الأولى من هذا المخطوط بيانًا بمحتوياته، ومنها يتبين أنه يبدأ

(*) MS Marsh, 288, Bodleian Library, Oxford.

بالكلام على «أوّلية خلق الدنيا»، ويتحدث فيه عن أول ما بدأ الله به خلقه من السماوات والبحار والجبال والجنة والنار وآدم وحوّاء، ثم يحكي قصة ما جرى بينهما وبين إبليس، ثم يقصُّ سير الأنبياء؛ حتى يصل إلى محمد ﷺ، ويتكلم عن الكتب المنزَّلة، ثم يذكر سيَر الخلفاء حتى فتح الأندلس، ثم يحدثنا عما يوجد بالأندلس من الذهب والفضة واللآلئ والياقوت والزمرُّد وما إلى ذلك من الخيرات وعيون الثروة، ثم يتحدث عمَّا يُستخرج منها، ثم يقصُّ سيَر مَن حكمها من الملوك ومَن غزاها من الفاتحين، ثم يحدثنا بما يتواتر على ألسنة الناس من الأخبار والأساطير عن كل ناحية من نواحيها. ويتحدث عما قدّر الله في علمه لهذه الدنيا من العمر، وما مرَّ منه وما بقي حتى قيام الساعة. وفي آخر الكتاب فصول عن الفقه والأخلاق والآداب وطائفة من الأشعار؛ ويختم الكتاب بالكلام عن قُضاة الأندلس[٢].

ويبدو أن ابن حبيب نفسه لم يكتب الكتاب، أو لم يكتب إلا جزءًا منه على أية حال؛ لأن سلسلة أمراء الأندلس المسلمين فيه تصل إلى الأمير عبد الله، أي إلى سنة ٨٨٨/٢٧٤. وقد توفي ابن حبيب قبل ذلك بخمس وثلاثين سنة، والظاهر أن الذي كتب الكتاب في صورته الحالية هو ابن أبي الرقّاع - وكان تلميذًا لعبد الملك يقيد سماعه - ثم أكمله وأضاف إليه أشياء من عنده.

وعلى الرغم من قدم هذا الكتاب، فإن قيمته التاريخية ضئيلة، وروايته لأخبار افتتاح الأندلس تطغى عليها الأساطير؛ حتى لتبدو وكأنها قصة من قصص ألف ليلة: فيذكر لنا ما رآه طارق في نومه من الرؤى، وحملته على بلاد تُميد، ويطيل في وصف حصار المسلمين لمواضع يعمرها الجن ويقومون بالدفاع عنها. ويذكر الشياطين الذين حبسهم سليمان في قماقم النحاس، ويطيل الحديث عن الكنوز التي كانت في قصر طليطلة، ويطنب في ذكر مائدة سليمان، وأساطير أخرى كثيرة يُدرجها في حديثه على أنها تاريخ. وقد درس دوزي هذه الروايات، وتبين أن

ابن حبيب أخذها عن شيوخه من المصريين، وابن حبيب نفسه يؤكد ذلك في أكثر من موضع من كتابه.

وقد كان الأندلسيون الذين يفدون على المشرق للدراسة في ذلك الحين يأخذون بأقوال أساتذتهم المشارقة ويبخسون قدر ما يسمعون من أهل بلدهم أنفسهم؛ لأن أولئك الشيوخ المشارقة كانوا ينظرون إلى أهل بلد الأندلس باحتقار عظيم ويرون أنهم جهلاء أجلاف؛ بيد أن أولئك المشارقة - الذين أحاطوا بأحاديث الرسول وما روي عنه - كانوا لا يكادون يعلمون شيئًا عن افتتاح الأندلس، وكانوا يحرصون مع ذلك على أن يظهروا أمام طلبتهم بأنهم يعرفون كل شيء، ولهذا فقد كانوا يقُصُّون على أولئك الطلبة - إذا سألوهم عن أمر الأندلس - أقاصيص مصرية.

وكان أولئك الشيوخ يحسبون أن الأندلس مجمع الأعاجيب، ويتحدثون عنه على أنه بلد وُجد في بحر الظلمات، تسكنه الجن وتقوم فيه القلاع المسحورة والأصنام التي تتحرك من تلقاء نفسها، وتعيش فيه الشياطين في قماقم حبسها فيها سليمان عليه السلام[٣].

ونحن نجد هذه الأساطير فيما يقصُّه ابن عبد الحكم المصري (المتوفى سنة ٨٧١/٢٥٧) من الروايات عن «فتح مصر والأندلس»[٤].

ف ٦٣ - آل الرازي[٥]

أنجب بيت الرازي ثلاثة مؤرِّخين: أولهم محمد بن موسى الرازي، وهو رجل مشرقي وفد إلى الأندلس سنة ٨٦٤/٢٤٩ وسكن قرطبة، واتَّجر أول أمره في الحلي والعقاقير وأشياء أخرى، ثم اتصل بالأمير محمد ونال عنده حظوة، فأدخله في خدمته وندبه للوساطة والصلح بين العرب والمولدين بناحية غرناطة في خصومة نشبت بينهم، وتوفي عقب عودته من هذه المهمة سنة ٨٨٦/٢٧٣[٦]. وقد اشتغل بالتاليف في

تاريخ الأندلس؛ بيد أنه لم يبقَ لدينا مما ألفه إلا قطع متناثرة من «كتاب الرايات» نجدها في ثنايا الكتب. وكان كتاب الرايات يدور حول دخول موسى الأندلس، ومن كان معه من بطون قريش وغيرها من قبائل العرب، وكانت لكل منها راية تلتف حولها.

وأهم من محمد بن موسى الرازي ابنُه أحمد بن محمد (المتوفى سنة ٣٢٤/٩٣٦)، وكان مولده في ذي الحجة ٢٧٤/٨٨٨. وكان أديبًا وخطيبًا مفوَّهًا وشاعرًا، وكان يلقب بـ: «التاريخي» لكثرة اشتغاله بكتابة التاريخ، فقد كتب كتابًا في «أخبار ملوك الأندلس وخَدَمتهم وغزواتهم ونكباتهم».

وثانيًا: «في أنساب مشاهير أهل الأندلس، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن ما كُتب في الأنساب وأوسعها»[٧] - وقد اعتمد ابن الأبار على هذا الكتاب اعتمادًا كبيرًا، **وثالثًا**: عن كبار الموالي الأندلسيِّين، **ورابعًا**: «في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها» على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها؛ وقد ضاعت هذه الكتب كلها.

ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة في صفة الأندلس مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان Crólogo del Moro Rasis، وقد نشر جزءًا منها جايانجوس سنة ١٨٤٠[٨]، وأكمل نشرها رامون منندذ بيدال في «فهرس المدونات في المكتبة الملكية في مدريد Catálongo de Crónices de la Real Bibolioteca »[٩].

وهذه القطعة الإسبانية من تاريخ الرازي المعروفة «بالكرونيكا» (التاريخ) تتألف من ثلاثة أقسام: **الأول** «صفة الأندلس»، ونصه الإسباني الذي بين أيدينا ترجمةُ رجل نجهل اسمه عن ترجمة برتغالية قام بها عن العربية قسٌّ يسمى «خيل بيريز Jil Perez» بأمر الملك ديونيس (١٢٧٩ - ١٣٢٥م) فأتمها بمساعدة نفر من

المغاربة يسمى أحدهم «المعلم محمد Maese Mohmed»، ولما كان خيل بيريذ لا يعرف العربية والمعلم محمد لا يعرف البرتغالية معرفة تامة، ولما كان المترجم الإسباني الذي قام بالنقل من البرتغالية إلى الإسبانية قد تصرَّف في الترجمة وغيَّر وبدَّل في بعض المواضع، فإنَّ النص الذي بين أيدينا الآن يبدو كثير من مواضعه غامضًا وغير مفهوم، بسبب تحريف المترجمين وتصرفهم أو بسبب عيوب في النُّسخ التي عثرنا عليها.

ويرى دوزي وجايا نجوس أن القسم الثاني من هذا الكتاب وعنوانه: «تاريخ إسبانيا منذ وصول إشبان بن يافث إليها إلى دون رودريجو (الملك لذريق)» إنما هو من وضع خيلْ بيريذ نفسه، وصنَّفه من مواد استقاها من الروايات المتداولة في أيامه ومن كتب عربية نُقِل إليه ما فيها.

أما القسم الثالث - ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى عصر الحكم المستنصر - فهو أشبه بأن يكون ترجمة مختصرة لكتاب للرازي. وقد رجع المؤلف في تصنيفها إلى «المُدَوَّنة» المستعربية Crónica Mazárabo أو الصِّلة الإسبانية Continuatio Hispana[١٠].

والكتاب على صورته الراهنة التي بين أيدينا قليل القيمة، فهو مجرد واحد من الملخصات التاريخية التي كانت ذائعة في القرن الثالث عشر الميلادي. وليس معنى هذا أن ضياع كتب الرازي هذه لا يعتبر خسارة كبرى، إذ الواقع أننا فقدنا كثيرًا جدًّا بسبب اختفائها؛ لأنها كانت تضم كثيرًا من الأخبار نجهلها الآن، وكان الوقوف عليها يفيدنا فائدة كبرى، هذا على الرغم من أن كتب الرازي كلها تأخذ وجهة نظر أمراء الأندلس وخلفائه، كما هو الحال في معظم كتب أصحاب التواريخ في تلك العصور. وقد كانت كتب الرازي ذات أثر عظيم في كتاب التاريخ الإسباني المعروف باسم «التاريخ العربي La Crónica Sarracina» الذي كتبه بدْرُو دِلْ كُرَّالْ

.Pedro del Corral

وضاع كذلك كتابًا «تاريخ الأندلس» و«حُجّاب خلفاء الأندلس» الذي كتبه ثالث المؤرخين من هذا البيت: عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي، والغالب أنّه كان يصل بتاريخ الأندلس إلى عصر هشام المؤيد[١١].

ف ٦٤ - الأخبار المجموعة

أو «مجموعة الروايات»، (نشرها وترجمها ا. لافُوينْتي أَلْكَانْتارَا E. Latuente Acántara في سنة ١٨٦٧)، ويرى الأستاذ ريبيرا أنّها: «مجموعة مذكرات وفقرات تاريخية سجلها صاحبها شيئًا فشيئًا، دون أن يقصد إلى ربط الحوادث ربطًا منهجيًّا أو يرتبها على حسب السنين»؛ وقد استنتج هذا مما يسود الكتاب من قلة ربط وانعدام نظام.

وتدور الفقرات التاريخية التي يتألف منها هذا الكتاب حول وقائع التاريخ الأندلسي، من الفتح الإسلامي إلى خلافة عبد الرحمن الناصر. وأهم فقراته وأوفرها مادة تلك التي تتعلق بدخول طارق بن زياد الأندلس، وفتوح قرطبة وماردة ودخول بَلْج بن بشر الأندلس، والفتن والحروب التي ثارت بين العرب عقب ذلك، ثم ولاية يوسف الفهري والصُّمَيْل بن حاتم للأندلس، وانتصارات عبد الرحمن الداخل. ولا يهتم هذا الكتاب بالأساطير الخيالية والخوارق التي ترد في غيره من الكتب، من أمثال رُؤَى طارق بن زياد قبل فتحه الأندلس، أو حكايات البيت الذي وجد في لذريق تابوتًا لا يحوي إلا الرَّق الذي آذنه بزوال ملكه، وما إلى ذلك[١٢].

ويرى ريبيرا أن هذه الفقرات «ليست من تسجيل شخص واحد، بل كتبها ناس مختلفون ثقافةً وفكرًا وذوقًا وطبقةً: لأننا نجد الرواية حينًا مطولة مفككة حافلة بالتفاصيل (ومثال ذلك الفقرات التي كتبها أولئك الذين بدءوا تسجيل هذه

«الأخبار»)، ونجدها حينًا آخر مركّزة موجزة مقتضبة. وتبدو بعض الفقرات وكأنما كتبها بعض من يميلون إلى أخبار الحروب وشئون السياسة دون غيرها ويعتبرون ما عداها تافهًا عديم القيمة، وبعض الفقرات الأخرى تنم عن أن من كتبها واحد ممن يميلون إلى شئون الدين والفقه والأخلاق، لا يكاد يستلفت انتباهه غيرها؛ بيد أن هناك رابطًا عامًا يجمع الفقرات كلها وينظمها في سلك واحد: هو اتجاهُ عصبيةٍ وطبقةٍ معينتين، وكأنما كتبها رجال أسرة واحدة ذات حسب ومحتد»[١٣].

وقد تناول الأستاذ ريبيرا مادة «الأخبار المجموعة» بالتحليل، بما عرف عنه من النفاذ في معالجة الكتب والنصوص التاريخية، وقد أثبت ذلك الإستاذ النَّابه أن واحدًا من أوائل الذين ساهموا في كتابة «الأخبار» كان قرطبيًّا من أهل الحرب والسياسة، وهو الذي كتب فقرات الكتاب من أوله إلى ما يتعلق بإمارة هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل (قبل سنة ٢٧٤/٨٨٨)، وغلب على ظن ريبيرا أن هذا الكاتب لا بد أن يكون من أشراف العرب، بل من قريش، ومن البيت الأموي نفسه. أما الجزء الذي يلي ذلك فيبدو وكأن كاتبه فقيه من أهل الأدب، وهو قرشي أيضًا وصَلَ رواية الحوادث وتخللها بآراء من عنده، ولم يصرف بالاً إلى وقائع الحرب والسياسة ولم يعنِ بما قام به الأمراء والخلفاء من أعمال عظيمة، بل اهتم بميولهم الأدبية وفضائلهم وعنايتهم بالفقهاء وأهل الأدب.

وقد أدى هذا التحليل الدقيق لمادة «الأخبار» بالأستاذ ريبيرا إلى القول بأنها كُتبت في عصر عبد الرحمن الناصر (٢٩٩ - ٣٤٩/٩١٢ - ٩٦١)، وهو العصر الذي تقف عنده روايات الكتاب.

أما لافوينتي ألكانترا، فقد أخذ بما ذهب إليه دوزي من أن الكتاب قد كُتِبَ في القرن الحادي عشر الميلادي، اعتمادًا على عبارة وردت في الكتاب تدل على أنها

كتبت في فترة كانت أحوال المسلمين في الأندلس تسير خلالها في طريق سيئ، وهذه العبارة هي قول صاحب الأخبار: «وليت الله كان أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله»[14]. وقد ظن دوزي أن ذلك إشارة إلى ما دهم المسلمين في الأندلس من الفتنة خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[15].

أما ريبيرا فيرى أن كاتبها قصد بها ما كان يجري عليه عبد الرحمن الناصر، من إضعاف سلطان رؤساء العرب وإحلال موالي الأندلسيِّين محلهم في الوظائف الكبرى وقيادات الجيوش في أنحاء الدولة[16]، وذلك ما جعل صاحب هذا الجزء من الأخبار يقول تعليقًا على سياسة الناصر:

« .. واتصل مُلك عبد الرحمن خمسين سنةً، في عز منيع وسلطان قاهر وافتتاح للبلدان شرقًا وغربًا، مع غزو العدو والغلبة له وانتساف بلده وهدم حصونه والاستبلاغ فيه، لا يلقى ذلاً ولا يرى في شيء من أموره نقصًا.

وتناهى ذلك السعد حتى فتح الله له ما وراء البحر من المدن الجليلة والمعاقل المنيعة، كسبتة وطنجة وغيرهما، ودان له أهلها فاستعمل عليها القواد، وحصَّنها بالرجال، وأمدهم بالجيوش الكثيفة في الأساطيل؛ حتى وطئت بلاد البربر واستذلت ملوكها، فصاروا بين متقبع (منقمع؟) محصور، ومذعن منيب، وشارد هارب. ومالت إليه الأهواء وسمت نحوه الهمم، فضافره على حربه وتجرد في نصره من كان مستبصرًا في قتاله من شيعة أعدائه، فنكص على موالاته واستهلك في مرضاته؛ واستحكم من أمره ما لو اتصل عزمه فيه وتأييد الله عليه لغلب على المشرق فضلاً عن المغرب.

ولكنه - عفا الله عنه - مال إلى اللهو واستولى عليه العُجب، فولّى للهوى لا

للغَناء، واستمد بغير الكُفاة، وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال، «كنجدة الحيرى» وأصحابه الأوغاد: فقلّده عسكره وفوض إليه جليل أموره، وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القوّاد والوزراء، من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه - وحالُ نجدة حالُ مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله.

فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة - وسماها غزاة القُدرة، لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها - فهُزم فيها أقبح هزيمة واتبعهم العدو أيامًا يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة، فلم يكد ينجو منهم إلى قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا إلى بلدانهم، فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه، وخلا بلدّاته ومبانيه فبلغ في ذلك مبلغًا لم يبلغه أحد ممن تقدمه أو تأخر بعده، وأخباره في ذلك أشهر من أن توصف. واجتمع في دولته من عِلْيَةِ الرجال وسروات الكتّاب خَدَمة لم يخدم الملوك مثلهم، في فضل آدابهم واتساع أفهامهم، مع المروّة الطاهرة والسيرة الجميلة، كموسى بن جُدير الحاجب، وعبد الحميد بن بَسيل، وعبد الملك بن جهور، وإسماعيل بن بدر، وابن أبي عيسى القاضي، ومنذر بن سعيد كان واحد في عصره في العلم والأدب وحسن الخطاب، وكان عيسى بن فطيس كاتبه أبلغ الناس إذا كتب، إلى كثير منهم لا يتسع التأليف لذكرهم ووصف محاسنهم، عفا الله عنا وعنهم ورحمنا وإياهم»[١٧].

وأكبر المآخذ على «الأخبار المجموعة» أن كُتّابها صرفوا عنايتهم كلها إلى أخبار عرب الأندلس وحدهم، دون غيرهم من طبقات الناس في البلد، بل جل اهتمامهم موجّهٌ إلى القرشيين منهم والبيت الأموي خاصة، مهملين بقية طبقات أهل الأندلس الإسلامي وأجناسهم الأخرى إهمالاً يكاد يكون تامًا، فلا نجد عنهم في الكتاب إلا إشارات عابرة[١٨].

ف ٦٥، (أ) - «تاريخ افتتاح الأندلس»، لأبي بكر ابن القوطية

ويكمل هذا النقص الذي يشوب «الأخبار المجموعة» كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لأبي بكر ابن القوطية المتوفى سنة ٩٧٧/٣٦٧، وهو كتاب عظيم القيمة. وأبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز - المعروف بابن القوطية - من حفدة سارة القوطية حفيدة غطيشة، التي قصدت الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق لتشكو إليه ظلامة أصابتها، فأكرمها وزوجها أحد مواليه.

ولد ابن القوطية في قرطبة ودرس في إشبيلية، «وكان عالمًا بالنحو حافظًا للغة متقدمًا فيها على أهل عصره لا يُشق غباره ولا يُلحق شأوه»، كما يقول ابن الفرضي(*). وكان شاعرًا سَلِسَ القريض محكم النظم، «أما في علوم الدين فلم يكن بالضابط لرواية في الحديث والفقه، ولا كانت له أصول يرجع فيها، وكان ما يُسمع عليه من ذلك إنما يُحمل على المعنى لا على اللفظ، وكثيرًا ما كان يُقرأ عليه ما لا رواية له فيها على جهة التصحيح»(*). وكان رجلاً متدينًا وشيخًا جليلاً، «طال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة. روى عنه جماعة من الشيوخ والكهول، ممن ولي القضاء وقُدِّم إلى الشورى وتصرف في الخطط من أبناء الملوك وغيرهم».

وأهم ما بقي لنا من مؤلفاته هو: «تاريخ افتتاح الأندلس»، (نشره جايا نجوس وترجمه ريبيرا في سنة ١٩٢٦)[١٩]، ويتناول الكلام فيه تاريخ الأندلس من لدن فتحه إلى نهاية إمارة الأمير عبد الله بن محمد، أي إلى سنة ٩١٢/٢٩٩.

ويغلب على ظن ريبيرا - الذي ترجم الكتاب إلى الإسبانية - أن الكتاب ليس

(*) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، رقم ١٣١٦.

(*) ابن الفرضي: نفس المصدر، وقد جئت بنص ابن الفرضي هنا لأن المؤلف أورد معناه محرَّفًا.

من إنشاء ابن القوطية نفسه، وإنما هو أقرب إلى أن يكون سماعًا دوَّنه عنه بعض من كان يحضر دروسه من المولَعين بالأخبار. وهو مجموعة من الأخبار القصار يبدو فيها ميل صاحبها وهواه، يعارض بعضها بعضًا في بعض الأحيان، وهي ترد في الكتاب على هيئة أخبار منفصلة بعضها عن بعض. والرواية لا ترد في الكتاب على لسان ابن القوطية بل على لسان أحد سامعيه، فهو يقول مثلاً: «قال لي ابن القوطية». وتتخلل الروايات أساطير شعبية ذات روح شاعري، تقوم على أساس من التاريخ ولا يؤلف بين بعضها وبعض رابط أو يجمعها تناسق.

ويؤيد ريبيرا رأيه هذا بأن ابن الفرضي - صاحب التراجم المعروف وتلميذ ابن القوطية - لا يذكر هذا الكتاب في «تاريخ علماء الأندلس»، وتراءى له أن الكتاب على صورته الحالية إنما هو مجموعة أخبار رواها ابن القوطية وسجلها واحد من تلاميذه وجعلها كتابًا، هو «التاريخ» الذي بين أيدينا الآن[٣٠].

بيد أن مادة الكتاب تتفق وروح ابن القوطية ونفسيته. فقد كان الرجل فقيهًا مالكيًا ليِّن العريكة لا يميل بطبعه وأصله إلى التعصب لفريق دون فريق وهو بسبب ولائه لبني أمية (إذ كان جده مولًى لعمر بن عبد العزيز) يتفق مع «الأخبار المجموعة» في الكلام عن موسى ولذريق وبني أمية، ولكن انتسابه إلى سارة القوطية جعله يُدخل في روايته عنصرًا قوميًا أندلسيًا، وهي ظاهرة على جانب كبير من الأهمية، إذا ذكرنا أن الأمر يتعلق ببلد كانت تعيش فيه أجناس مختلفة ذات أديان متباينة، وقد أهمل هذه الناحية غيرُ ابن القوطية من أصحاب التواريخ. ومن أمثلة روايته ذات الطابع القومي أخبار أرطباس مع الصميل بن حاتم وميمون العابد[٣١]، وهي أخبار تُظهر العربَ في صورة الجهلاء الأجلاف، وتصوِّر أرطباس القوطي في صورة الرجل ذي المواهب العظيمة والخلق الحميد اللطيف.

وفي الكتاب كذلك فقرات قصيرة ذات طبع قصصي عن فترة الفروسية في

تاريخ الأندلس الإسلامي، أيام كان العرب يعيشون فيما نزلوه من نواحي الجزيرة عيش الأمراء الإقطاعيّين قبل قيام الدولة الأموية وفي خلال سنيّها الأولى، تلك الأيام التي عاش فيها تمّام بن علقمة وبنو قَسّيّ. وفي الكتاب كذلك أخبار قصصية عن الشاعر غَريب المتعصب لقومه مستعربي طليطلة، وعن وقائع مروان الجَلّيقي بناحية بطليوس، وأعمال «إزراق» بناحية وادي الحجارة، وأخبار عمر بن حفصون.

وليس في الكتاب شيء عن خصوم بني أمية والمناهضين للعرب من أهل البلاد، وهو يهمل شئون اليهود والنصارى إهمالاً تامًّا، ولو أنه عني بها لاكتملت بها صورة المجتمع في الأندلس الإسلامي.

وإليك نموذجًا من مادة هذا الكتاب وأسلوبه في الرواية:

«ومن أخبار أرْطَبَاس، أن عبد الرحمن بن معاوية أمر بقبض ضياعه التي كانت بيده، وأوجب ذلك أنه نظر إلى قبته يومًا في بعض غزواته معه وحولها من الهدايا غير قليل، إذ كانت الهدايا تتلقاه في كل محلة من ضياعه، فنفس ذلك عليه فقبضت منه. وصار عند بني أخيه ؛ حتى ساءت حاله، فقصد قرطبة وأتى إلى الحاجب بن بُخت فقال له: «استأذن لي على الأمير أبقاه الله، فإنني أتيته لأتودع منه»، فدخل الحاجب فاستأذن له، فأدخله عبد الرحمن بن معاوية إلى نفسه، فنظر إليه في هيئة رثّة فقال له: «يا أرطباس، ما بلغ بك ها هنا؟» فقال له: «أنت بلّغتني ها هنا: حُلت بيني وبين ضياعي وخالفت عهود أجدادك في بلا ذنب يوجب ذلك عليّ»، فقال له: «وما هذا التوديع الذي تريد أن تتودع مني؟ أظُنُّك تريد التوجه إلى رومة»، قال: «لا، ولكنه بلغني أنك تريد التوجه إلى الشام»، قال له: «ومن يتركني أرجع إليها وبالسيف أُخرجت عنها؟»، قال له أرطباس: «فهذا الموضع الذي أنت فيه تريد أن

توطده لولدك بعدك أم تأخذ منه ما اتخذ لك؟»(*)، قال: «لا والله ما أريد إلا أن أوطده لنفسي ولولدي»، قال له أرطباس: «فغَيِّر هذا اعمل فيه». ثم عرّفه بأشياء كان الناس ينكرونها عليه وبينها له، فسرّ بذلك عبد الرحمن بن معاوية وشكره عليه، وأمر له بعشرين ضيعة من ضياعه صرفت إليه، وكساه ووصله وولاه القِمَاسة فكان أول قومس بالأندلس.

«وحكى الشيخ ابن لبابة - رحمه الله - على من أدركه من الشيوخ، أن أرطباس كان من عقلاء الرجال في أمر دنياه، وأنه دخل عليه عشرة من الشاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خلد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصُّميل بن حاتم، فسلموا وجلسوا على الكراسي المحيطة بكرسيه. فلما أخذوا مقاعدهم وحيَّى بعضهم بعضًا، دخل ميمون العابد - جد بني حزم البوابين، وهو أحد موالي الشاميين - فلماء رآه أرطباس داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقوده إلى كرسيِّه الذي قام منه، وكان مصمَّدًا بالذهب والفضة، فأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه وقال له: «لا يحل لي هذا»، فجلس على الأرض وجلس معه، ثم قال له: «ما جاء بمثلك إِلَى مثلي؟» فقال له ميمون : « قدمنا إِلَى هذا البلد وظننا أنَّ ثوانا لا يطول فيه ولم نستعدّ للمقام، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ما نتوهم معه أنا لا نعود إلى موضعنا به. وقد وسَّع الله عليك، فأريد أن تعطيني ضيعة من ضياعك، أعتمرُها بيدي، وأؤدي إليك الحق منها وآخذ الحق»، فقال له أرطباس: «لا والله، ما أرضى أن أعطيك ضيعةً مناصفةً»، ودعا بوكيل له فقال له: «ادفع إليه المجشر الذي على وادي شَوْش وما فيه من البقر والغنم والعبيد، وادفع إليه القلعة بجيَّان وهي المعروفة

(*) كذا في الأصل المطبوع.

بقرية حزم ملكها [...]»[*]، فشكر وقام.

وعاد أرطباس إلى مقعده فقال له الصميل: «يا أرطباس، ما يعجزك عن سلطان أبيك إلا نفاذ الطيبة [من نفسك]. أدخُل عليك - وأنا سيد العرب بالأندلس - ويدخل أصحابي هؤلاء معي - وهم سادات الموالي بالأندلس - فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان، ويدخل هذا السؤال فتصير من إكرامة إلى حيث صرتَ؟»، فقال له أرطباس: «يا أبا جوْشَن، أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يُخزك، ولو أخزاك لم تُنْكِر عليّ برّ من بررتُ. (وكان الصميل أميًّا لا يقرأ ولا يكتب) إنكم إذا أكرمتم أولياء الله فإنما تكرمونه عز وجل. وقد رُوِّينا عن المسيح ﷺ أنَّه قال: من أكرمَ الله من عباده وجبتْ كرامتهُ على جميع خلقه»، فكأنما ألقمه حجرًا.

فقال له القوم: «دع هذا وانظر فيما قصدنا له. حاجتُنا وحاجةُ الرجل الذي قصَدَك وأكرمتَه واحدة»، فقال: «أنتم ملوك وليس يرضيكم إلا الكثير»، فوهبهم مائة ضيعة صار منها لكل واحد منهم عشر ضياع، منها طُرش لأبي عثمان، والفُنْتين لعبد الله بن خلد، وعُقدة الزيتون بالمدوَّر للصميل بن حاتم»[٢٢].

ف ٦٥، (ب) - عُرَيْب بن سعد (توفي سنة ٣٦٩/٩٨٠)

كان عريب قرطبيًّا من أصل نصراني، وقد أسلم آباؤه واستعربوا. وتلقى تعليمًا طيبًا، ودخل في خدمة الدولة واتخذه الحكم المستنصر كاتبًا. وقد كتب مختصرًا «لتاريخ الطبري» اختصر فيه تاريخ الطبري فيما يتصل بأخبار المشرق من سنة ٢٨٩ إلى ٩٠٢/٣١٩ إلى ٩٣٢، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس. وكان عريب - إلى جانب اشتغاله بالتاريخ - طبيبًا، وفي مكتبة الإسكوريال كتاب مخطوط من تأليفه عنوانه «كتاب خَلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود» وقد وضع كذلك تقويمًا

(*) بياض بالأصل.

شبيهًا بتقويم «ربيع بن زيد» (ف ١٤١) الذي نشره دوزي في ليدن سنة ١٨٥٣[٢٣].

أما أبو عامر بن شهيد (المتوفى سنة ١٠٠٢/٣٩٢) فكان تلميذًا لقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة، وكان خطيبًا وشاعرًا وصديقًا للمنصور بن أبي عامر. وقد كتب تاريخًا كبيرًا كان يقع في أكثر من مائة جزء، جعله على طريقة الحوليات، روى فيه الحوادث سنةً سنةً من عام أربعين للهجرة - أي من وفاة عليٍّ بن أبي طالب - إلى أيامه[٢٤].

٢ـ عصر الطوائف

ابن حيَّان - ابن مزين - ابن أبي الفيَّاض - ابن حزم

القرطبي: حياته، مؤلفاته الفلسفية والفقهية والدينية،

مؤلفاته التاريخية: تحليل كتاب «الفصل» مؤلفاته الأدبية: «طوق الحمامة». مدرسة

ابن حزم - صاعد الطليطلي - تواريخ الدول

تطورت الثقافة الإسلامية في الأندلس وانتشرت العلوم بين أهلها، فأقبلوا على وضع التآليف القيمة الواسعة في كل فن. فكتبوا في تاريخ الأندلس (مثل ابن حيَّان والحميدي وغيرهما)، بل كتبوا في تاريخ الأديان، سابقين في ذلك أوروبا بقرون كثيرة (مثل ابن حزم)، وتناولوا التاريخ العام (كما نرى عند صاعد الطليطلي)، ولم يقصِّروا كذلك في تصنيف الكتب في تواريخ الدول التي قامت قبيل سقوط خلافة قرطبة الأموية وبعده (كالدول العامرية والعبَّادية والزيرية)، ومن المؤسف أن معظم هذه المؤلفات قد ضاع.

❁❁❁❁

ف ٦٦ - أبو مروان حيَّان بن خلف بن حسين بن حيَّان[٢٥]

وأعظم مؤرخي هذا العصر هو حيَّان بن خلف بن حيَّان (٣٧٧ - ٤٦٩هـ/ ٩٨٧ - ١٠٧٠م). وهو قرطبي، وكان أبو خلف من كتَّاب المنصور بن أبي عامر، وقد درس على أبيه وعلى أحمد بن عبد العزيز بن الحباب النحوي وصاعد البغدادي الأديب وعمر بن نبيل المحدث، وتفقه وأتقن الآداب على أيديهم ثم انتظم في سلك وظائف الدولة، وشغل وظيفة صاحب الشرطة - أو صاحب المدينة - في قرطبة زمنًا.

وكان يُنسب لابن حيَّان كتاب يسمى «رسالة التابعين»؛ حتى أثبت الأب ملشور أنطونيا أنَّها رسالة استخلصها مؤرخ مشرقي - هو أبو عبد الله الذهبي - من كتاب لابن حِبَّان البُستي[٢٦]. أما كتب ابن حيَّان التي صحت نسبتها إليه فقد ضاع

معظمها، ومن هذه الكتب «المآثر العامرية»، و«تاريخ فقهاء قرطبة» - وقد اعتمد في تصنيفه على كتاب لأبي عمر بن عفيف في نفس الموضوع[٣٧] - ثم كتابا «المتين» و«المقتبس»، ولم يبقَ لنا من هذه الكتب كلها إلا أجزاء من هذين الأخيرين.

كان «المقتبس» يقع في عشرة أجزاء، تتناول تاريخ الأندلس من لدن افتتاحها على يدي طارق إلى زمن المؤلف. ولا نجد اليوم بين أيدينا إلا ثلاثة أجزاء منه: جزء عن عصر الأمير عبد الله، وقد نشره الأب ملشور أنطونيا سنة ١٩٢٨، وجزء عن خلافة الحَكم المستنصر يقوم بنشره الآن الأستاذ غرسية غومس، وجزء عن عصر عبد الرحمن الأوسط يعدّه للنشر الأستاذ ليفي بروفنسال[*]. والقطعة التي نشرت بالفعل - وهي الخاصة بعصر الأمير عبد الله - ترينا أهمية نشاط هذا الأمير في تطور تاريخ الأندلس: فلولا سياسة الثبات والصلابة التي انتهجها هذا الأمير للقضاء على حركة المولّدين التي كان يقودها عمر بن حفصون، ولولا صموده لجماعات من عرب الأندلس تحصَّنوا في معاقلهم في الكُوَر، واجتهدوا في الاستقلال بنواحيهم عن سلطان الإمارة الأموية، لما كان من الممكن لحفيده وخليفته عبد الرحمن الناصر الارتفاع بالخلافة الأموية الأندلسية إلى الشأو الرفيع الذي بلغته على أيامه.

ويبدأ هذا الجزء من المقتبس برواية أخبار مَهْلك الأمير المنذر والبيعة لأخيه عبد الله من بعده؛ ثم يعقد فصلاً عمَّن «استعان بهم الأمير عبد الله على رفيع أعماله من رجال دولته: حُجّابه ووزرائه وقوّاده وكتّابه وقضاته وفقهاء عصره»؛ ثم يتكلم عن «المخالفين عن الأمير عبد الله، الخارجين على الجماعة، المضرمين لنار الفتنة»؛ ثم ينتقل إلى الكلام عن شخص الأمير، فيتحدث عن فضائله؛ ثم يتحدث تحت عنوان:

(*) عدلت عبارة المؤلف هنا حتى تستقيم مع ما وصلنا إلى العثور عليه ونشره في مقتبس ابن حيان، وأحيل القارئ على «صلة» كتابنا هذا، الفصل الخاص بحيّان بن خلف.

«باب الذمّ» عن نقائصه، فيأخذ عليه «هوان الدماء عليه، وإسراعه إلى سفكها؛ حتى من ولديه وإخوته ومَن خلفَهم من صحابته ورعيته، أخذًا لأكثرهم بالظنة»، ويعيب عليه «شدة بخله»؛ ثم يلم بذكر شعراء بلاطه؛ ويمضي بعد ذلك في رواية الحوادث التي وقعت بين سنتي ٢٧٥ و٢٩٨ هجرية بتفصيل شامل، ملتزمًا في ذلك تحديد التواريخ في دقة عظيمة.

وهو يهتم اهتمامًا شديدًا بأخبار ثورة عمر بن حفصون، والفتن التي أثارها العرب في لبلة وإشبيلية، ووقائعهم مع عمر بن حفصون ومع جند الأمير عبد الله. ويذكر مقتل القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية على يد المطرف بن الأمير عبد الله غدرًا، ثم يذكر كيف قتل عبد الله ابنه هذا عقابًا له على هذه الفعلة بمجرد عودته إلى قرطبة، ويطيل الحديث عن سعيد بن جُودي وما إلى ذلك. وتتخلل روايته قطع من الشعر، كلها لأبي عمر أحمد بن عبد ربه الذي كان شاعر البلاط آنذاك[٢٨].

أمَّا الكتاب الكبير الثاني لابن حيَّان، وهو «المتين»، فكان يقع في ستين مجلدةً ولم تُبقِ الأيام منه إلى على فقرات رواها بعض من أتى بعده من الكُتَّاب، كابن بسَّام وابن الخطيب. وهذه القطع تُظْهر لنا بوضوح أهمية هذا الكتاب الذي ضاع[٢٩].

ويذكر ابن حيَّان في تضاعيف كتاباته أسماء الكتب التي استقصى منها معلوماته والمؤلفين الذين اعتمد عليهم: فهو يذكر الرازي، وابن القوطية ومعاوية بن هشام الشَّبْينْسِيّ - وهو صاحب كتاب «تاريخ بني أمية في الأندلس» وأبا بكر بن عبادة بن ماء السماء، الذي ألّف «تاريخ شعراء الأندلس»، وابنَ عبد ربه، وأبا الوليد بن الفرضي، وصاعدًا البغدادي، وسكَن بن إبراهيم الكاتب، وأبا عمر بن عبد البر، وآخرين كثيرين. وقد استقى من مؤلفات ابن حيَّان كل من أتى بعده من المؤرخين.

وقد ذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون» أن أبا عبد الله محمد بن فتوح الأزدي الحميدي (٤١٩ - ٤٨٧/١٠٢٩ - ١٠٩٥) وضع مختصرًا للمقتبس[٣٠]، ولكن هذا وهم منه؛ لأن كتاب الحميدي إنما هو معجم أبجدي لعلماء الأندلس قدَّم له بموجز في تاريخ الجزيرة (وقد ترجم جايانجوس الجزء الخاص بعصر الخلافة من ذلك الموجز). وقد كتب الحميدي هذا المعجم في بغداد بعيدًا عن المراجع اللازمة، فجاء مجموعًا قليل القيمة من تراجم الرجال يشوبه غلط كثير في تحديد التواريخ[٣١].

وقد قال عن ابن حيَّان أحد أصحاب التراجم:

«حيَّان بن خلف بن حسين بن حيَّان أبو مروان القرطبي مولى بني أمية، شيخ الأدب ومؤرخ الأندلس؛ روى عنه أبو علي الغساني ووصفه بالصدق. وكان أبو مروان فصيحًا بليغًا، له كتاب «المقتبس» في تاريخ الأندلس، في عشرة مجلدات، وكتاب «المتين» في تاريخ الأندلس أيضًا، ستون مجلدًا. رآه بعضهم في النوم فسأله عن التاريخ الذي عمله فقال: لقد ندمت عليه، إلا أن الله تعالى أقالني وغفر لي بلطفه. وكان لا يتعمد كذبًا فيما يكتبه في تاريخه من القصص والأخبار. توفي سنة تسع وستين وأربعمائة»[*].

وقد أيَّد المحدثون هذه الشهادة الطيبة، فقال دوزي: «إنَّ كُتَّاب العرب يمتدحون في كتب ابن حيَّان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجمال أسلوبه وجزالة لغته ورنين عباراته. وأنا أؤيدهم في ذلك كل التأييد، ولا أتردد في القول بأن كتبه - لو بقيت - لألقت على تاريخ الأندلس الغامضة ضياءً باهرًا وصورته لنا أحسن تصوير، ولو وجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغًا يجعلنا نستغني بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور.

(*) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٤، مجلد ١، ص ١٦١.

إن ابن حيان سيَّال الأسلوب، ولكنه مع ذلك لا يتعثر في الإطناب والقعقعة اللفظية، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهَبة التي لا تنتهي. إنه ليسوق التاريخ مساق من يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء، كما سيفعل من بعده مؤرِّخون نقّادون كابن سعيد وابن خلدون.

ويمتاز ابن حيَّان إلى ذلك بأسلوب صافٍ ناصعٍ لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط، ولا يقع كذلك في التفصح والإسراف في قعاقع الألفاظ (كما نجد عند ابن خاقان مثلاً). وهو رغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه، ويبعث في كلامه دائمًا حماسًا وغنًى وطابعًا غالبًا من الجد.

نعم إنه يلجأ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة، ولكنه - رغم امتياز تعبيره بفصاحة القدماء - لا يولع بما أولع به معاصروه لمن التزويق والمحسنات اللفظية. ونخرج من هذا كله بأننا «لا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه»[٣٢].

ف ٦٧ - محمد بن مزين - ابن مسلمة - ابن أبي الفياض

ومن الجدير بالذكر من مؤرخي هذا العصر أبو بكر محمد بن عيسى بن مُزَين (المتوفى سنة ٤٧٠/١٠٧٨)، وقد ألَّف كتابًا في تاريخ الأندلس تتواتر الإشارة إليه فيما بين أيدينا من كتب تواريخ الأندلس. ومن الأخبار الهامة التي تنسب إليه ذكر «الرايات» التي دخلت الأندلس مع الجيش الفاتح، وقبائل العرب التي كان تتضوي تحت هذه الرايات. وهو صاحب الفصل الممتع الذي يحدثنا عن الملكية العقارية في الأندلس بعد الفتح[٣٣]. كان محمد بن مُزَينْ من علماء الشريعة وأفذاذ الأدباء[٣٤]، وكذلك كان أبو عبد الملك بن غصن[٣٥] (المتوفى سنة ٤٥٣/١٠٦٢) أحد الأعلام في الأدب والتاريخ والتأليف، ونقم عليه المأمون بن ذي النون بسبب صبحته

لرائس بَلَده ابن عبيدة، فكتب إليه من السجن يعتذر، وألّف للمأمون «رسالة السجن والمسجون والحزن والمحزون» ورسالة أخرى سمّاها بـ: «العشر كلمات».

أما أبو عامر بن مسلمة (٤٣٢ - ٥١٠/ ١٠٤١ - ١١١٧) فكان وزيرًا في إشبيلية، وقد ألّف في التاريخ كتابًا يسمى «حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح»[٣٦]، تكثر الإشارة إليه عند ابن بسام وغيره، وقد ألّف كذلك كتبًا أخرى نثرًا ونظمًا. وشعره ضاحكَ طروب يميل إلى التحرر والانطلاق ميلاً واضحًا[٣٧]. وحقيقٌ بالذكر كذلك أحمد بن سعيد بن أبي الفيَّاض (٣٧٥ - ٤٥٨/ ٩٨٦ - ١٠٦٦) وكان تلميذًا لأبي عمر الطلمنكي، وقد ألّف كتابًا عفى عليه الزمن يسمى «العبر» نشر ميخائيل الغَزِيريّ قطعة منه على أنها للرازي[٣٨]؛ وألّف في الجغرافيا أيضًا، فكتب كتابًا عن الطرق والأنهار، وقد ضاع هذا الكتاب كذلك[٣٩].

ف ٦٨ - ابن حزم القرطبي

وأظهر شخصيات ذلك العصر في ميدان الآداب هو ابن حزم القرطبي صاحب التآليف الكثيرة والذي عُني ميجيل آسين بدراسته عناية عظيمة فيما بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ وعرفنا به تعريفًا طيبًا.

كان أبو محمد علي ابن حزم (٣٨٣ - ٤٥٤/ ٩٩٤ - ١٠٦٣) ابنًا لأحمد بن حزم وزير المنصور، وقد صحب في شبابه شيخه وأستاذه أبا علي الحسين بن علي الفاسي؛ وكان، على قول ابن حزم: «عاقلاً عاملاً عالمًا ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الدنيا والاجتهاد للآخرة ... وما رأيت مثله - جملةً - علمًا وعملاً وديانًا وورعًا، فنفعني به الله كثيرًا، وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي»[٤٠].

درس أبو محمد بن حزم الحديث على أبي عمر أحمد بن محمد بن الجَسُور (ف ٥٥) دراسة طيبة، فتهيأ له بذلك أساس مكينٌ بنى عليه فيما بعد معارفه بأصول

الدين والشرع، ودرس «تاريخ الطبري» دراسة فهم وتمعُّن فأصاب من ذلك إدراكًا طيبًا لتاريخ البشر والأديان، وكذلك سمع الحديث عن أبي عمر الطلمنكي المحدِّث النَّابه، وتعلم المنطق على يدي الكتاني، وكان طبيبًا من مدرسة مسلمة المجريطي، ودرس الأدب على أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي[٤١]، وعرف في مجلسه أبا عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين المعروف بابن الطبني وأخاه[٤٢] وكانا من أفذاذ الشعراء، ولا بد أنه ساهم كذلك في مجالس الأدب التي كانت شائعة في تلك البيئة المهذبة المثقَّفة الرفيعة التي نشأ فيها.

وقد تعلَّق أبو محمد بن حزم - وهو بعدُ صبي يافع - بفتاة ذات حسن كان أبواه قد حضناها وقاما على تربيتها، فتمنعت عليه، ولم تظهر له قطُّ من القبول ما يفسح له في مجال الأمل فيها، فطوى نفسه على آلام هذا الهوى. وقد نسب دوزي تولُّع ابن حزم بهذا الهوى العذري إلى طبع متأصل في جنسه، وعلله بما يقال من أن ابن حزم ينحدر من أصل نصراني[٤٣]؛ وقد نقض الأستاذ آسين بلاثيوس رأي دوزي هذا، وأتى بأمثلة كثيرة من هذا الحب العذري والعفة الزوجية عند مسلمي الأندلس، في نفس العصر الذي عاش فيه ابن حزم. ورد هذه الظاهرة إلى ما في الإسلام من نوازع زهديه، وقال: إن وجودها دليل قاطع على ما يكمن في نفوس الشعوب الإسلامية من مثالية عظيمة، كان الناس ينكرونها عليها إلى ذلك الحين[٤٤]، أي إلى عصر دوزي!.

وفي عام ١٠١٢/٤٠٢ توفي أبوه، وكان قد أقام في خدمة العامريين حتى مقتل عبد الرحمن بن منصور بن عامر الملقب بشنجول، وعندما شبت الفتنة البربرية أُخْرِج ابن حزم من قرطبة، إذ كان رأسَ بيت مناصر لبني أمية، متمسك بحقهم في العرش، لطول ما اتصل رجاله بخلفائهم وأقاموا في خدمتهم.

ونُهبت قصور ابن حزم بعد خروجه من قرطبة، فتوجه إلى المرية وأقام فيها،

وهناك انصرف إلى تأييد عبد الرحمن الرابع - الملقب بالمرتضى - فيما كان يسعى إليه من طلب الخلافة بمؤازرة نفر من أنصاره. وسار ابن حزم مع جيش المرتضى لحرب بني حمّود، فانهزم الجيش في موقعة «غرناطة» (٤٠٨/١٠١٨) وقتل المرتضى وأُسِر ابن حزم ثم أُخلِيَ سبيله فلجأ إلى شاطبة، واطمأن هناك ردحًا من الزمن كتب فيها كتاب «طوق الحمامة». وظل مع ذلك يدعو لعبد الرحمن الخامس الذي كان يطلب الخلافة لنفسه.

فلما وفّق عبد الرحمن إلى ما كان يسعى إليه، وارتقى عرش الخلافة وتلقب بالمستظهر عام ٤١٤/١٠٢٣، استقدم ابن حزم وأقامه وزيرًا له. ولم تدم خلافة المستظهر غير شهرين قُتِل بعدهما في ٢٧ من ذي القعدة ٤١٤/ ١٠ فبراير ١٠٢٤ وانتهى أمره، فنُفي ابن حزم مرة ثانية من قرطبة، فآلى على نفسه ألا يضع في السياسة يدًا من ذلك الحين، مؤمنًا بأن أدعياء الخلافة لم يعودوا يحوزون ما ينبغي لها من نصاب شرعي، وأن الخلافة لم تعد حقًا إلهيًا.

وهكذا ظل ابن حزم إلى ذلك الحين موزعًا بين السياسة والأدب[٤٥]، أما بعد ذلك فقد كرّس وقته كله لدراسة الدين والفقه.

أقبل ابن حزم على دراسة الفقه وهو في السادسة والعشرين من عمره، وكان دافعه إلى الإقبال على درسه ما ظهر ذات مرة في المسجد من جهله بفروض الصلاة[٤٦]، فأقبل يدرس الشريعة والفقه في نهم على يد الفقيه المشاور عبد الله بن يحيى بن دَحُون، فقرأ عليه موطأ مالك، وتتلمذ كذلك للشيخ أبي الوليد يونس بن الصفّار[٤٧].

ثم وجد نفسه ميلاً لمذهب محمد بن إدريس الشافعي (ف ١٢٤) فانتقل إليه[٤٨]، وكان الشافعيون قلة بين الأندلسيين. ولم يظل ابن حزم شافعيًا إلا فترة قصيرة[٤٩]، إذ استحسن المذهب الظاهري، وهكذا نجده ظاهريًا قبل سنة ٤١٩/١٠٢٩[٥٠] -

والظاهريون هم أتباع أبي دواد ممن يلتزمون التقليد المأثور ويأخذون بالمعنى اللفظي الظاهر لكَلِم القرآن (ف ١٢٤) - وقد أنكر عليه فقهاء المالكية ذلك ومنعوه وأستاذة أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت من التدريس في جامع قرطبة[٥١]، فكان لموقف الفقهاء منه وتتبعهم إياه أثر عميق في خُلقه ونفسه.

وبعد أن توفي شيخه أبو الخيار بقليل، أقبل ابن حزم على تاليف كتبه ومضى يذرع ممالك الطوائف داعيًا لمذهبه، وثارت بينه وبين الفقهاء المساجلات، فتجلى في مناقشاته علمه الواسع وتمكنه البالغ من اللغة والأدب والشعر والتاريخ والحديث والفقه وما إليها من العلوم الإسلامية.

وظهرت كذلك إحاطته بضروب العلم القديمة من المنطق والفلسفة (عدا الرياضة)، وتحققه بكتابات اليهود والنصارى، والروايات التلمودية خاصة. وامتاز كذلك بمهارة فائقة في الجدل، يعيبها حَيْدُهُ في بعض مجادلاته عما ينبغي للعلم من أمانة، (كأن يحرّف كَلِم النصوص، أو يفسرها تفسيرًا ملتويًا مقصودًا، أو يبتر نصوص من يجادلهم من أصحاب المذاهب أو الأديان الأخرى بترًا مشوّهًا مفسدًا، وما إلى ذلك)، «حتى أصبحت حدة ألفاظه وشدة الكلمات التي يستعملها مضرب المثل في بلاد الإسلام كلها»[٥٢]. ومن بين مجادلاته التي ذاع أمرها تلك التي جرت بينه وبين أبي الوليد الباجي في مَيورْقَة[٥٣]، (وكان ابن حزم قد لجأ إلى رعاية عاملها ابن رشيق)، وكان الباجي فقيهًا مالكيًا نابهًا واشعريًا فذًا (ف ١٢٦)، ويبدو أن ابن حزم غُلب في مجادلة الباجي، ويرد ابن حيَّان ذلك إلى تعصبه لمذهبه ومبدئه السياسي[٥٤].

كان ابن حزم رجلاً صادقًا مخلصًا قويمًا ذا ديانة وحشمة وسؤدد[٥٥]. وكان يؤمن بأن سلامة العقيدة والشرف فوق الحياة نفسها، وكان مخلصًا لأصحابه يتفانى في سبيلهم، لدودًا في خصومته، لا يصفح ولا ينسى ثاره، ولوعًا بالسخر من

خصومه، شديد الاعتداد بما أوتي من علم؛ وكان كريمًا عفيفًا وسطًا في إيمانه، لا هو ساذج يقبل كل شيء، ولا هو متشدد لا يقبل إلا حكم العقل، بل هو أقرب إلى العقليين منه إلى العاطفيين، كما يقول آسين بلاثيوس: «لأن مزاجه الذي جمع بين الهدوء والرزانة والنفاذ والصلابة والقدرة على قبول الحقائق الجافة، جعله بمنأى عن الاستغراق في فيوض الحياة»[٥٦].

ويقول آسين بلاثيوس: «إن ابن حزم قد عاين من ألوان الظلم ما أنضب مَعِين الرقة واللين في نفسه، وشاهد من مُساءات الفوضى والسياسة التي ضربت على الأندلس بجرانها في أيامه ما نفّر نفسه، وأوذي في نفسه وكرامته بما لقي من الاضطهاد ورأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتجهمون له ويقاطعون مذهبه الديني ويحرمونه، فاستقر رأيه على أن يعتزل الدنيا والناس وينزوي في موطن أسرته مُنْت لِشَمْ، وهي بُلَيْدة على مقربة من وَلْبَة ربما كانت قرية كازا مونتيخا Casa montija الحالية[*] - وذلك بعد أن صادر المعتمد بن عباد كتبه وأحرقها - وفي هذا المعتزل كتب كتابه «الأخلاق والسير في مداولة النفوس»، وهو أشبه باعترافات تفيض بالتشاؤم العميق»[٥٧].

ومن غرائب القدر أن ابنًا لابن حزم - هو أبو رافع الفضل - دخل في دعوة المعتمد بن عباد وأخلص في خدمته وقُتل في موقعة الزلاقة، محاربًا إلى جانب الد أعداء أبيه[٥٨].

(*) راجع مناقشة في موضع منت لشم في:

Asin, Abenhazam ... I, pp.28-29 et notes.

ف ٦٩ - آثار ابن حزم في الفلسفة والشريعة وعلوم الدين والتاريخ

كان ابن حزم من أكثر خلق الله كتابة وتأليفًا، ويبدو أنه درس وألّف في كل صنف من أصناف العلوم، عدا الرياضة. ومن المؤسف أن معظم مؤلفاته قد ضاع.

وسنتبع في عرض مؤلفات ابن حزم التصنيف الذي اتبعه آسين بلاثيوس في كتابه عن ابن حزم[٥٩].

(أ) **الفلسفة:** ألّف ابن حزم كتبًا في مراتب العلوم والمنطق وفي نقد أبي بكر الرازي، وقد ضاعت كلها. ولكن بقي لنا مما يستحق الذكر من تواليفه كتابه المسمى «الأخلاق والسير في مداواة النفوس»[٦٠]. وقد أجمل آسين بلاثيوس وصفه بقوله: «إنه أشبه بسجل يوميات، دوّن فيه ابن حزم ملاحظات أو اعترافات تتصل بسيرة حياته، وهذه الملاحظات ترد في الكتاب دون ترتيب يُقصد به إلى التعليم والتربية، ولم يُراع في تنسيقها منطق.

ونحن إذ نقرؤه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ دقيق الملاحظة أثناء تجاربه الواسعة، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحِكَم». وهذا الأسلوب الوعظي الحكمي الذي اتبعه ابن حزم يجعل كتابه هذا شبيهًا بحكم ديموقريط وسنيكا؛ ولا يخلو الكتاب مع ذلك من الفقرات الطول، كهذه القطعة الجميلة التي يذم فيها الغرور، أو تلك التي يصارحنا فيها ابن حزم برذائل ونقائص أخلاقية يراها في نفسه، ويقررها في تواضع وإخلاص يذكراننا باعترافات القديس أوغسطين. وفي مواضع أخرى من الكتاب يصف ابن حزم أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية، وتجرد عن الميل والهوى.

وإن الإنسان ليشعر وهو يقرأ كلام ابن حزم في هذا المقام وكأنه يطالع كتب

«الأخلاق» التي كتبها ثيوفراست، أو لابروبير، أو «مقالات في الأخلاق والسياسة» لبيكون[٦١].

وأعظم قيمة لهذا الكتاب الأخلاقي - الذي صدر عن نفس يشوبها التشاؤم والتصوف - هي أنه يقدم لنا صورة حقيقية حية لنفسية مسلمي الأندلس في القرن الحادي عشر، وقواعد الأخلاق التي كانت مرعية في مجتمعهم. هذا إلى جانب تلك الفقرات التي تتصل بحياة ابن حزم نفسه، وقد أشرنا إليها فيما سلف.

وإليك بعض أطراف من أقوال ابن حزم وحِكَمه في هذا الكتاب:

* «من أساء إلى أهله وجيرانه فهو أسقطُهم، ومن كافأ مَن أساء إليه منهم فهو مثلهم، ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم ..

* أول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر، وأول من يمقت شاهد الزور مَن شهد له به، وأول من تهون الزانية في عينه الذي يزني بها ...

* العِرض أعز على الكريم من المال. ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عرضه بنفسه، ويصون دينه بعرضه، ولا يصون بدينه شيئًا أصلاً».

ف ٧٠

(ب) الفقه والأصول: ألّف ابن حزم كتبًا كثيرة في الحديث والمذاهب، ولكن أهمها على الإطلاق هي:

كتاب «الإبطال» (الذي نشر جولد تسيهر جزءًا منه)، وابن حزم يعرض علينا فيه ضَعف أصولٍ خمسة اتبعتها بعض المذاهب الإسلامية في استخلاص الأحكام الشرعية، وهي: القياس، والرأي، والاستحسان، والتقليد، والتعليل. وأهمية هذا الكتاب راجعةٌ إلى أنّه يبين لنا الأسس التي بنى عليها ابن حزم مجادلاته ونقده

للمذاهب الأخرى؛ وهو الكتاب الأساس الذي يُبسِّط لنا فيه دقائق المذهب الظاهري الذي اعتقده.

وله في هذا الموضوع أيضًا كتاب «الإيصال إلى فهم كتاب الخصال»[٦٢]، الذي يوجز فيه ابن حزم ما بَسَطه في كتاب «الخصال الجامعة لمحصل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام»، الذي ضاع والذي يغلب على الظن أنه شرح لأصول المذهب المالكي ونقدٌ له ومجادلة للمالكيين.

وله أيضًا كتاب «المحلى في الخلاف العالي في فروع الشافعية» (محفوظ بدار الكتب المصرية)[٦٣]، الذي يناقش فيه أصول المذهب الشافعي وينقدها؛ وكذلك كتاب «الفِصَل» الذي سنتحدث عنه فيما يلي.

ف ٧١

(ج) **علوم الدين:** كتب ابن حزم رسالات كثيرة، نقض فيها آراء أصحاب المذاهب التي اعتبرها منحرفة عن الطريق القويم، أو دلل فيها على أن أسلوب القرآن مُعجِز لا يشبه في شيء أي أسلوب من أساليب البلاغة الإنسانية؛ وقد ضاعت هذه الكتب. وصنَّف رسالات أخرى مثل: «بيان التحريفات التي أدخلها اليهود والنصارى على نصوص التوراة والإنجيل»، و«النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع من الفرق الأربعة: المعتزلة، والمرجئة، والخوارج، والشيعة»[٦٤]. وهذه كلها نجدها مجموعة في كتاب «الفِصَل في الأهواء والنحل»، الذي نستطيع أن نعتبره بحق «تاريخًا للأديان»؛ وهو أهم ما كتب ابن حزم في موضوع الأديان[٦٥].

حاول ابن حزم في دراساته في موضوع الأديان أن يوفق بين العقل والعقيدة (سابقًا ابن رشد إلى ذلك بقرن من الزمان)، واجتهد في أن يطبق على الإلهيات أصول

المذاهب الظاهري الذي اعتقده، متبعًا في ذلك قواعد عامة أوجزها الأستاذ آسين بلاثيوس فيما يلي: «الأخذ بالمعنى الحرفي «الظاهر» للفظ القرآن، و «الاجتهاد» في تفسير آية تفسيرًا عقليًا طبيعيًا، اجتهادًا يقوم على ما ورد في معاجم اللغة من معاني الألفاظ، وما قرره اللغويون من قواعد البلاغة العربية وأصولها، والتزام ما أجمعت عليه الأحاديث الموثوق فيها مما صح سنده عن الصحبة أو ما قرره «إجماع» المسلمين، وذلك دون «تقليد» لرأي أي مذهب معين، وقد اعتمد ابن حزم على مذهب الغَنُوص الذي يقول بأن ذات الله وصفاته وأفعاله لا يحيط بها العقل البشري، إذ إن الإيمان - على قوله - لا بد أن يصدر عن قلب مدرك لوجود الله بالفطرة، إذ بغير ذلك لا يتيسر للعقل الإنساني أن يدرك ذات الله وصفاته وأفعاله»[٦٦].

ف ٧٢

(د) **التاريخ**: خلّف ابن حزم لنا مادة طيبة في التاريخ، منها كتاب «جمهرة أنساب العرب» (وقد نشره ليفي بروفنسال في القاهرة سنة ١٩٤٨) وهو عظيم الفائدة لمن يدرسون تاريخ الإسلام في المشرق والأندلس.

أما كتاباه «الإمامة والخلافة في سِيَر الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها» و«فهرست» شيوخه، فلم نعثر عليهما إلى الآن. وبين أيدينا كتابه «نقط العروس» (وقد نشره زايبولد في غرناطة سنة ١٩١١، وأعاد نشره سيكو Seco سنة ١٩٤٦ ثم الدكتور شوقي ضيف في القاهرة ١٩٥١)، وهو يضم معلومات مقتضبة جافة عن خلفاء المشرق والأندلس وحكامها، مرتبة «فصولاً بحسب جوامع مختلفة تربط بينهم، مثل: «أول الأسماء التي وقعت على الخلفاء رضي الله عنهم» و«تسمية من ولي الخلافة في حياة أبيه»، و«مَن ولي منهم صبيًا»، و«أكثر الخلفاء عمرًا»، وما إلى ذلك»[٦٧]؛ وكأنما مادة هذا الكتاب نقط كان قد وضعها ابن حزم ليُنشئ حولها كتابًا مطولاً. وله كذلك «الرسالة» المشهورة في «بيان فضل الأندلس وذكر

علمائه»، وقد احتفظ لنا المقري بنصها في «نفح الطيب»[٦٨] وترجمها جايانجوس إلى الإنجليزية فيما ترجم من أجزاء «النفح»[٦٩].

وقد كتب ابن حزم هذه الرسالة جوابًا على ما ورد في خطاب بعث به أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي القيرواني إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم، «يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائها ومآثر فضلهم وسير ملوكهم»[٧٠]، فانبرى ابن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدّد أفضالهم ومؤلفاتهم في حماس بالغ لوطنه. وقد قال آسين بلاثيوس في حق هذه الرسالة القيمة: «إنها تضم ثبتًا بما ألّف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم، وهي في فصول كل منها يدور حول صنف من العلوم والآداب، ويذكر ابن حزم أمهات مؤلّفات الأندلسيين في كل علم وفن، وإليك فهرست أبواب الرسالة:

«مقدمة في فضل الأندلس وأهله ومزايا قرطبة مع ملاحظات طريفة على أخلاق أهل الأندلس - أحكام القرآن والحديث ورجاله والفقه (المالكي خاص) - اللغة - الشعر - الأخبار (التاريخ والطبقات) - الطب - العدد والهندسة - علم الكلام - خاتمة في المقارنة بين أعلام العلماء في المشرق والأندلس»[*][٧١].

وقد أكمل علي بن سعيد المغربي فوات هذه الرسالة (ف٧٩)[٧٢]

ف ٧٣ - كتاب الفصَل

وأشهر ما ألّف ابن حزم في مادة التاريخ وأعظمه قيمة هو كتاب: «الفصَل في الملل والأهواء والنِّحَل»[٧٣]، وهو تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب (نُشِرَ في

(*) استخرجت فهرست «الرسالة» من نصها عند المقري (جـ٢، ص ١٠٨ - ١٢١) وقد اقتضى هذا مخالفة الفهرست الذي أورده المؤلف عن آسين بلاثيوس.

القاهرة سنة ١٣٢١. وترجمه إلى الإسبانية آسين بلاثيوس، ونشره في سنتيْ ١٩٢٧، ١٩٢٨). وهو كتاب ضخم حافل بما فيه من مادة وأفكار، يعرض فيها ابن حزم لشتى مذاهب الذهن البشري في موضوع الدين، من الإلحاد المطلق الذي عليه السفسطائيون الذين لا يؤمنون بشيء، بل لا يؤمنون بأن تفكيرهم نفسه حقيقة مجردة، إلى إيمان العوام الذين يصدّقون كل شيء، ويؤمنون بالخرافات في جهل، ولا يشكون في شيء.

ثم يقول آسين بلاثيوس: «إن ابن حزم يُقَسِّمْ النَّاس - من حيث موقفهم من أمر العقيدة - إلى ستة أقسام يرتبها بحسب بعدها أو قربها من الإسلام، وهي:

أولاً: شك السوفسطائية، الذين يبطلون الحقائق.

ثانيًا: إلحاد الفلاسفة، الذين يُنكرون وجود إله خالق ويقولون: «إنَّ العالم قديم، وليس له مدبر».

ثالثًا: كُفْر الفلاسفة، الذين يقولون: «إنَّ العالم لم يزل، وله مع ذلك فاعل» .. أي ينكرون وجود إله خالق للعالم الأزلي.

رابعًا: ثنائية الإله التي يقول بها الزردشتيون والمانويون، وتعدد الآلهة الذي يقول به النصارى المؤمنون بالثالوث.

خامسًا: توحيد البراهمة والعقليين، الذين يؤمنون بوجود إله واحد، ولكنهم يُنكرون النبوة والملائكة.

سادسًا: توحيد اليهود ومن أنكر التثليث من النصارى، ومذهب الصابئة ومن أقر بنبوة زردشت من المجوس وأنكر ما سواه»[٧٤].

ثم يأتي الإسلام بعد ذلك، ويرى ابن حزم: أنه العقيدة الإيجابية الوحيدة الحقة، وبرسالته المحمدية نَسَخ الله ما أوحى به من قبل إلى أنبياء بني إسرائيل، بما فيهم عيسى. ويرى ابن حزم في المسيح أنَّه نبيٌّ حقٌّ فحسب، وهو رأي عامة المسلمين فيه.

وهو يدرس - في نفس الوقت - ما عليه بعض الناس من عدم الاكتراث للدين، وما عليه جهلاء العامة من تصديق لكل شيء وإيمان بالمعجزات الكاذبة، وما يزعمه البعض من تفسير الأحلام واستخراج الأحكام عن طريق النظر في النجوم.

وعندما يعرض ابن حزم لموضوع النزاع الشديد بين الدين والعقل، يدرس طبيعة الإيمان عند العوام وعند أهل الفكر والتدبير، ويقول بالابتعاد عن التعصُّب الشديد غير الفلسفي، ولا يرضى كذلك عن اتباع العقل المطلق، ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقًا وسطًا بين العقل والإيمان، مما يطابق تمام المطابقة المذهب «الظاهري» الذي كان هو نفسه عليه.

ولما كانت مذاهب إبطال الحقائق إطلاقًا - وهو ما يقول به السوفسطائيون والإلحاديون، ومن يقولون بوجود الخالق ولكنهم ينكرون النبوات - تُنكر كل الأسس التي تقوم عليها العقائد فإن ابن حزم يطيل النظر في هذه المذاهب الثلاثة وينقضها، ويخرج من ذلك كله بإثبات وجود حقيقي للكون، ويدلل على صدوره عن غيره، وعلى أنه موقوت بأجل، ويقول بعد ذلك: «فإن تمادي الكلام وجب بما قدمناه ألا نهاية، واللانهاية في العالم من مبدئه باطل ممتنع محال، فإذن قد بطل أن يخرج العالم بنفسه، وبطل أن يخرج دون أن يُخرجه غيره .. فقد ثبت الوجه الثالث ضرورة، وإذا لم يبق غيره ألبتة، فلا بد من صحته، وهو أن العالم أخرجه غيره من العدم إلى الوجود وبالله تعالى التوفيق».

ثم يعرض بعد ذلك «لآثار صنعة الله التي لا يشك في ذو عقل» ويقول: «وليس هذا ألبتة من فعل طبيعة ولا بنسج ناسج ولا بنّاء ولا صانع أصباغ مرتبة، بل هو صنعة صانع مختارٍ قاصدٍ إلى ذلك، غير ذي طبيعة، لكنه قادر على ما يشاء. هذا أمر معلوم بضرورة العقل وأوله يقينًا، كما نعلم أن الثلاثة أكثر من الاثنين، فصحَّ أنه خالق واحد أوّل حق؛ لا يشبه شيئًا من خلقه ألبتة، لا إله إلا هو الواحد الأول الخالق

عز وجل»(*).

وهو ينكر من العقائد الإيجابية المجوسية (وهي الزردشتية)، وما تقول به من الوهية أورمز وأهرمَن(٧٥)، وما يندرج تحتها من مذاهب أشهرها المانوية والمَزدَقيَّة؛ وهو ينكر كذلك عقائد الصابئين والنصارى، ويَعْتبر هؤلاء الأخيرين مشركين؛ لأنهم يقولون بالثالوث.

وابن حزم يعرِّف مذاهب النصارى المختلفة ويفرِّق بين أولئك الذين ينكرون الثالوث منهم (أصحاب أريوس وأصحاب بولس الشمشاطي وأصحاب مقدونيوس)، ومن يقولون بالثالوث (الملكانيون - وهم الكاثوليك الأرثوذكسيون - والنسطوريون واليعاقبة وهم المونوفيزيون)، ويعرِّف كذلك الأقطار التي يسود فيها كل مذهب من هذه المذاهب.

وبعد أن يفرغ ابن حزم من نقض عقيدة الثالوث والتجسد، يمضي بعد ذلك في إثبات عقيدة التوحيد؛ وأوَّل ما يتناول للوصول إلى ذلك هو التدليل على إمكان الوحي الإلهي وضرورته وعلى أنه حق.

وفي سياق الكلام في هذا الموضوع، يقف ابن حزم لحظة؛ ليناقش طائفة من العقليِّين، كانوا ينكرون الوحي مؤيدين رأيهم بالقول بأن أجناس البشر نشأت عن أصول متعددة، خُلقت كلها في وقت واحد في أقطار متباينة، ويُثبت لهم أن الله تعالى خلق من النوع الإنساني ذكرًا واحدًا وأنثى واحدة، بإجماع آراء أهل الأديان جميعًا (من الهند والمجوس والصابئين واليهود والنصارى والمسلمين) وآراء من يسميهم: «البراهمة» (وهم من غير شك الشانيُّون والبوذيون من أهل الهند).

(*) ابن حزم: الفصل، جـ١، ص ٢١ - ٢٣.

وهو يثبت ضرورةَ الوحي الإلهي بطريقة قريبة جدًّا من تلك التي اتبعها بونالد Bonald[٧٦]، عندما تعرض لهذا الموضع في القرن التاسع عشر. وابن حزم يستند هنا إلى حجة سيُدخلها القديس توما الأكويني فيما بعد في علم الإلهيات عند الإسكولاستيين، وتقوم هذه الحجة على القول بعجز البشر - عن طريق العقل الصِّرْف - عن الوصول إلى الحقائق الدينية التي لا بد من معرفتها لإدراك الغاية من الدين وحكمته؛ وسيتوسع ابن رشد في هذه الحجة فيما بعد.

والأسلوب الذي يلجأ إليه ابن حزم للتدليل على إمكان الوحي وحقيقته التاريخية شديد الشبه بذلك الذي نجده في رسائل «عن الديانة الحقة De Vera Religione» المتداولة بين الإسكولاستيين في أوروبا من القرن الثالث عشر إلى اليوم، مع فارق بديهي وهو أنه يستعملها للتدليل على صحة رسالة محمد ﷺ، وعلى أنَّ القرآن كلام الله أوحى به إلى رسوله دون ريب.

وهكذا يدحض ابن حزم آراء مدرستين فلسفيتين متطرفتين، كثر أتباعهما إذ ذاك في العالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا: الأولى كانت تقول بدين واحد لكافة البشر، والأخرى كانت تنكر الأديان المنزَّلة جميعًا، نتيجةً لما كان يقول به أصحابها من أضاليل.

ولكن، أيُّ الأديان الثلاثة المنزَّلة هو الصحيح: اليهودية، أم النصرانية، أم الإسلام؟ يجيب ابن حزم على هذا السؤال بطريقة يوجزها آسين بلاثيوس بقوله:

«يذهب ابن حزم إلى أنَّ الإنجيل - بعهديه: القديم، والجديد - قد حُرِّفَت كلماتُه عن مواضعها على أيدي النصارى واليهود، وأن كلا هذين الفريقين لا يستطيعان القول بأن ما بأيدي أصحابهما من كتبٍ كتبٌ منزَّلة، وخاصة بعد أن نُسخت عقائدهما بالرسالة المحمدية.

أما عقيدة اليهود بمذاهبها الخمسة - وهي: السامرية، والصدوقية والعنانية (وهي القرائية، وهم أصحاب عَنان الداودي اليهودي) والريانية (أو التلمودية، وهم الأشعنية وهم «جمهور اليهود») والعيسوية (أصحاب أبي عيسى الأصبهاني)[٧٧] - فيدحضها ابن حزم بالقول بأنَّ كتبها المقدسة قد حُرِّف كلِمُها، ويجتهد في إثبات رأيه بمناقشة نصوص التوراة وغيرها من كتب بني إسرائيل مناقشة ناقد مطلع عليها، ويذهب إلى أنه من المستحيل عقلاً أن تكون هذه الكتب قد بقيت على أصولها دون تحريف، ويدلل على ذلك بأدلة يأتي بها من التاريخ.

أما المسيحية فينكر ابن حزم صحتها، بالقول بأن الكتب التي تضم عقائدها وقواعدها الأخلاقية، إما أن تكون من وضع البشر أو حرِّفت نصوصها الأولى.

وابن حزم يمضي في تفسير ما يعرض من نصوص هذه الكتب - وذلك في ذاته برهان قاطع على إطلاعه الواسع - متبعًا قواعد مذهبه الظاهري من التفسير الحرفي الجاف، منتهجًا نهجًا تشكُّكيًّا ساخرًا فولتيريًّا شبيهًا بما نعرفه في أيامنا، دون أن نشعر ونحن نقرؤه أنه أحمس - ولو إحساسًا يسيرًا جدًّا - بما تنطوي عليه المسيحية من «حنوٍّ إلهي»، أو أنه أدرك فكرتها عن «الله أبي البشر». ولكن قيمة الكتاب عظيمة جدًّا في تعريفنا بأفكار المستعربين الإسبان وأحوالهم، وما كانوا يقومون به من طقوس».

فإذا فرغ ابن حزم من إبطال آراء النصارى واليهود، فقد خرج من ذلك بأن الدين الوحيد الصحيح المنزَّل هو الإسلام. وابن حزم يلجأ في إثبات صحة الرسالة المحمدية وعُلْوية عقيدتها بحجج تشبه تلك التي يستعملها كُتَّاب النصارى في إثبات فضائل النصرانية وميزاتها. ثم يتعرض بعد ذلك لمناقشة المذاهب الإسلامية للتعرُّف على أصحها وأقربها إلى النهج الصحيح. يقول آسين:

«إنَّ ابن حزم يبدأ بذكر مذاهب الزندقة الأربعة الرئيسية التي ظهرت في الإسلام مع ذكر الفِرق الفرعية التي تتفرع عن كل منها، ويعرّف بها واحدة فواحدة، بذكر «عمدتهم التي يتمسكون بها» ويكشف عن طبيعتها عن طريق عرض ما يحاول أصحابها مجادلته أو إفساده من الأركان الأساسية لمذهب أهل السنة؛ فيقول مثلاً :

إنَّ المرجئة يضلون في فهم الإيمان وما يكون في الآخرة، والمعتزلة لا يفهمون التوحيد والقَدَر (حرية البشر في الاختيار)، والشيعة لا يفهمون معنى الإمامة، والخارجية يقعون في نفس الخطأ ويقعون كذلك في الخطأيْن اللذين يقع فيهما المرجئة»[٧٨].

«ويعتقد ابن حزم أن روح العصبية الفارسية هي مصدر المذاهب الضالّة كلها في الإسلام، ويقول: إنَّ الفرس «لما امتُحِنُوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب - وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرًا - تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة، ورأموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، ففي كل ذلك يُظْهِرُ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الحق، وكان من قادتهم سِنْبَاذْ وأُسْتَاذْسِيسْ والمقنَّع (الكندي) وبَابَكْ (الخُرَّمِي) وغيرهم، وقبل هؤلاء رام ذلك عمَّار الملقب بخداش وأبو مسلم السرَّاج، فرأوا أنَّ كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم على الإسلام واستمالوا أهل التشيع، بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم علي - رضي الله عنه - ثمَّ سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام»[*]؛ أي أنهم أوهموا الناس أنهم دخلوا الإسلام؛ لكي يكون ذلك أعون لهم على إفساد أمره وإدخال عقائد المجوسية وطقوسها في رحابه. وقد سلكوا إلى ذلك طريق التأويل لآي القرآن،

(*) ابن حزم: الفصل، جـ٢، ص ١١٥.

ومن هنا تتبين ضرورة التفسير الحرفي «الظاهري» للقرآن حتى ينكشف ضلالهم.

ويجمع ابن حزم الآراء الضالة التي قال بها أصحاب الفرق والمذاهب المختلفة في موضوع الأركان الأساسية للعقيدة القويمة تحت أبواب خمسة هي:

- التوحيد.
- القدر (الجبر والاختيار).
- الإيمان (العقيدة).
- الوعد والوعيد (الحياة الأخرى).
- الإمامة[٧٩].

ثم يمضي في معالجتها في أسلوب قريب مما سار عليه القديس توماس الأكويني في «خلاصة علوم الدين Suma theologica».

ونتيجة ذلك أن كتاب ابن حزم صار تاريخًا لعلم الكلام في الإسلام، مع اتجاه واضح لبيان فضائله، وإن لم ينقصه بين الحين والحين ذلك الطابع الموضوعي المتجرد عن هوى صاحبه، ولكن يعوزه إدراك فكرة تطور العقائد التي غلبت على دراسات تاريخ الأديان في القرن التاسع عشر، وابن حزم يبين لنا في كتابه تيارات الثقافة القديمة، والمؤثرات النصرانية التي دخلت على الإسلام.

ويقول آسين بلاثيوس: «إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هي أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب «الفصل» لابن حزم تمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذي لم يتوقف أبدًا خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب، ففي ثنايا صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك النسيج الذهبي الذي تتألف منه الفلسفة الخالدة، ذلك النسيج الذي صنعته أوفر عبقريات الإغريق حكمة بأيديها الصبور في مهارة فائقة، وعلى ضوء صفحاتها نرى كيف يزداد النسيج سعة وامتدادًا، وكيف تدخل في

تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة؛ وربما وجدنا أن هذه الأنسجة الجديدة لا تضاهي نسيج الإغريق روعة وبريقًا ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء، ونراها تجود وتزداد إحكامًا بفضل ما أدخله عليها التفكير النصراني الشرقي وما أضافه إليها المسلمون من مادة أوفر. وقد كان المسلمون آخر من انتهت إليهم أطراف هذه العناصر كلها، ولهذا فقد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكري الغني ونتائجه، ومن ثَمَّ لم يكن بالعسير عليهم أن يسبقوا مفكري النصارى من أهل الغرب في تحليلها ووضع منهجها وأساسها اللذين سيقوم عليهما التفكير المنهجي الإسكولاستي في القرن الثالث عشر»[٨٠].

وإليك نموذجًا من أسلوب ابن حزم في «الفصل» نتخيره من الفصل الذي يدلل فيه على صحة وجود الوحي والنبوة، قال أبو محمد:

«...فإذ قد أثبتنا أن النبوة -قبل مجيء الأنبياء عليهم السلام- واقعة في حد الإمكان، فلنقل الآن بحول الله تعالى وقوته على وجوبها إذا وقعت ولا بد، فنقول:[*].

إذ قد صح أن الله تعالى ابتدأ العالم ولم يكن موجودًا حتى خلقه الله تعالى، فبيقين ندري أن العلوم والصناعات لا يمكن البتة أن يهتدي أحد إليها بطبعه - فيما بيَّنَّا - دون تعليم، كالطب ومعرفة الطبائع والأمراض وسببها على كثرة اختلافها ووجود العلاج لها بالعقاقير التي لا سبيل إلى تجريبها كلها أبدًا. وكيف يجرب كل عقار في كل علة؟ ومتى يتهيأ هذا ولا سبيل له إلا في عشرة آلاف من السنين ومشاهدة كل مريض في العالم؟ وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل بما لا بد منه

(*) لم يورد المؤلف هذه الفقرة الواردة بين الأقواس، وإنما رأيت إيرادها حتى يتصل سياق الكلام في الفقرة التي أوردها، وهي التي تلي القوس.

من أمر المعاش وذهاب الدول وسائر العوائق. وكعلم النجوم ومعرفة دورانها وقطعها وعودها إلى أفلاكها مما لا يتم إلا في عشرة آلاف من السنين، ولا بد أن يقطع دون ضبط ذلك العوائق التي قلنا. وكاللغة التي لا تصح تربية ولا عيش ولا تصرف إلا بها، ولا سبيل إلى الاتفاق عليها إلا بلغة أخرى ولا بد، فصحَّ أنه لا بد من مبدأ للغةٍ ما. وكالحرث والحصاد والدراس وآلاته والعجن والطبخ والحلب وحراسة المواشي، واتخاذ الأنسال منها والفرس واستخراج الأدهان، ودق الكتان والقنب والقطن وغزله وحياكته وقطعه وخياطته ولبسه، وآلات كل ذلك وآلات الحرث والأرحاء والسفن وتدبيرها في القطع بها للبحار والدواليب وحفر الآبار وتربية النحل ودود الخز، واستخراج المعادن وعمل الأبنية منها ومن الخشب والفخار، وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم. فوجب - بالضرورة ولا بد - أنه لا بد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداءً كل هذا دون معلّم، ولكن بوحي حققه عنده، وهذه صفة النبوة. فإذن لا بد من نبي أو أنبياء ضرورةً، فقد صحَّ وجود النبوة والنبي في العالم بلا شك»[٨١].

ف ٧٤ - آثار ابن حزم الأدبية «طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف»[٧٢]

يعتبر الطوق أهم ما ألف ابن حزم في باب الأدب، وهو رسالة عن «الألفة والأُلاّف» أي الحب والمحبين. ويقع الكتاب في ثلاثين فصلاً يدور كل منها حول موضوع معين من موضوعات الحب، مُرْسَلَة كلها بطريقة متشابهة يلتزمها ابن حزم في كل فصل منها، فيبدأ بتعريف نوع الألفة الذي يدور عليه الفصل أو يصف خاصية من خصائصه يتخيرها، ثم يورد طائفة من الحكايات الواقعية يدلل بها على صحة ما يقول، وتتخلل الكلام كله قطع من شعر ابن حزم نفسه.

ويضع ابن حزم فصول الكتاب كلها في أقسام أربعة تجمع ثلاثين بابًا، وقد أورد بيان تقسيم كتابه في الباب الأول منه - عن مائية الحب - فقال:

«وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين بابًا، منها في أصول الحب عشرة: فأولها هذا الباب، ثم باب في علامات الحب، ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب التفسير.

ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشرة بابًا، وإن كان الحب عَرضًا والعرضُ لا يحتمل الإعراض، وصفةً والصفة لا توصف فهذا على مجاز اللغة في إقامة الصفة مقام الموصوف، وعلى معنى قولنا: وجودنا عرضًا أقل في الحقيقة من عرض غيره، وأكثر وأحسن وأقبح في إدراكنا لها علمُنا أنها متباينة في الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة، إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزي؛ لأنها لا تشغل مكانًا؛ وهي: باب الصديق المساعد، ثم باب الوصل، ثم باب طيّ السر، ثم باب الكشف والإذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب القنوع، ثم باب الوَفاء، ثم باب الغدر، ثم باب الضنى، ثم باب الموت.

ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب، وهي: باب العاذل، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الهجر، ثم باب البين، ثم باب السلو.

من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب متقدمة الذكر، وهما: باب العاذل وضده باب الصديق المساعد، وباب الهجر وضده باب الوصل. ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من معاني الحب، وهي: باب الرقيب، وباب الواشي، ولا ضد لهما إلا ارتفاعهما، وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك. ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصَّيناه.

وباب البين وضده تصاقب الديار، وليس التصاقب من معاني الحب التي نتكلم فيها. وباب السلو وضده الحب بعينه، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه.

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة، وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف؛ ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحضّ على طاعة الله - عَزَّ وَجَلَّ - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مفترض على كل مؤمن. لكنا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرتبة المقسمة في دَرج هذا الباب الذي هو أول أبواب الرسالة، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود، ومن أول مراتبها إلى آخرها، وجعلنا الضد إلى جنب ضده. فاختلف المساق في أبواب يسيرة، والله المستعان»[٨٣].

يقول ابن حزم: إنَّ صور الحب كثيرة: من الحب الإلهي إلى الهوى الذي يُقصد به المتاع والمسرة[٨٤]، ويقول : إنَّ أحدًا لا يسلم من مس الهوى، سواء أكان من الخلفاء المهديّين والأئمة الراشدين، أم من كبار الرجال ودعائم الدول، أم من الصالحين والفقهاء[٨٥].

أما تعريف الهوى في رأي ابن حزم فهو: «اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، [لا على ما حكاه محمد بن داود - رحمه الله - عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أُكَر مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها. وقد علمنا أنَّ سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال]. والشكل دأبًا يستدعي شكله، والمِثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير شاهد .. [والله عز وجل يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فجعل علة السكون أنها منه]. ولو كان علة الحب حُسن الصورة الجسدية لوجب ألا يُستحسن الأنقص من الصورة، [ونحن نجد كثيرًا ممن يُؤثِر الأدنى ويعلم

فضل غيره ولا يجد محيدًا لقلبه عنه]، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب وتلك تفنى بفناء سببها، فمن ودَّك لأمر ولَّى بعد انقضائه] ...»[٨٦].

ويقول ابن حزم: إنَّ أهم علامات الحب هي: «إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقِّبة عن سرائرها والمعبِّرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها ...»[٨٧].

وبيّن الأسباب التي ينجم عنها الحب (كالرؤية في النوم أو سماع الوصف وما إلى ذلك)، واحدة ذات وقع شديد على المحب: هي الحب من نظرة واحدة، كما حدث ليوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادي مع الجارية خولة، (وقد رويناه فيما سبق، ف ١٥)[٨٨]. ثم يعقد فصلاً عمن «أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها»[٨٩] يذكر فيها أن «للحب حُكمًا على النفوس ماضيًا، وسلطانًا قاضيًا، وأمرًا لا يُخَالف، وحدًّا لا يعصى، ومُلكًا لا يُتَعدى، وطاعة لا تُصرف، ونفاذًا لا يُرد، وأنه ينقض المرَر، ويَحُلُّ المبَرم، ويحلل الجامد، ويُخِلُّ الثابت، ويَحل الشغاف، ويُحِل الممنوع».

ثم يحلل غرائب المحبين ويقول: «لقد شاهدت كثيرًا من الناس لا يُتهمون في تمييزهم، ولا يُخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارهم ولا تقصير في حدسهم، وقد وصفوا أحبابًا لهم في بعض صفاتهم ما ليس بمستَحسن عند الناس ولا يُرضَى في الجمال، فصارت هجيراهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم. ثم مضى أولئك إمَّا بسلوٍ أو بينٍ أو هجر أو بعض عوارض الحب، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها».

ومضى يحلل عشق الناس لهذه الصفات الخاصة؛ حتى الشائه منها، ويقول: «وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا»، ثم

يقول: «دعني أخبرك: إني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء شعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه»[٩٠]، «وأما جماعة خلفاء بني مروان - رحمهم الله - فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منه مختلف»[٩١]. ثم يقول أبو محمد في «باب الوصل»: «.. ولقد جربت اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان، ولا المال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن بعد الخوف، ولا التروح على المال، من الموقع في النفس ما للوصل، لا سيما بعد طول الامتناع وحلول الهجر؛ حتى يتأجج عليه الجوى ويتوقّد لهيب الشوق وتتصرم نار الرجاء. وما أصناف النبات بعد غِبّ القطر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحب السواريات في الزمن السجسج، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين الَنوار، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقن بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رُضيَت أخلاقه وحُمدت غرائزه وتقابلت في الحسن أوصافه ...»[٩٢].

ويذكر ابن حزم صورًا متعددة للهوى العذري، والحب في هذه الصور كلها إنّما هو عاطفة نبيلة رفيعة. ويقول: إنَّ هناك وجوهًا كثير للقنوع بالحب، منها: الاطمئنان على سلامة الحبيب (وهو أمر سيردده دانتي عندما يتحدث عن سلامة بياتريس)، ويقول حينًا: «ومما يدخل في هذا الباب شيء رأيته ورآه غيري معي، أن رجلاً من إخواني جرحه من كان يحبه بمدية، فلقد رأيته يقبّل مكان الجرح ويندبه مرة بعد مرة»[٩٣]. ويذكر حينًا آخر كيف يقنع المحب بتقبيل التراب الذي وطئه قدم الحبيب، ويقول: «وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غاية في الجمال، فشاهده يومًا في بعض المتنزهات ماشيًا وامرأة خلفه تنظر إليه، فلمّا بعد أتت إلى المكان الذي قد أثّر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله»[٩٤] (وهو أمر سيفعله فيما بعد شاعرنا المبدع ماثياس Macias). وينشد ابن حزم في هذا المعنى الأبيات التالية

على لسان تلك التي قبلت موطئ قدم الحبيب:

يلومونني في موطئٍ خُفِّه خطا ... ولو علموا عاد الذي لام يحسد
فيا أهل أرض لا تجود سحابها ... خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا
خذوا من تراب فيه موضع وطئه ... واضمن أن المَحْل عندكم يبعد
فكل تراب واقع فيه رجله ... فذاك صعيد طيب ليس يجحد
كذلك فعل السامري وقد بدا ... لعينيه من جبريل إثر ممجد
فصيَّر جوف العجل من ذلك الثرى ... فقام له منه خوارٌ ممدد(٩٥)

ثم يقول: إنَّ «مزار الطيف» في النوم هو الدواء والشفاء لكل محب مهجور قد تطاول غمُّه، أو لمن عدا عادي المنون على محبه، فإذا كان راضيًا عنا زارنا طيفه في النوم. ومزار الطيف - على قصر مداه ووقوعه في جانب الوهم - إنما هو شيء يخصُّنا، وعن طريقه نرى من غالهم الموت ممن نحب، ونستعيد لذاذات العيش التي ذهبت بها صروف الزمان، ويخيل إلينا أننا ننسى أنَّ من نحب قد مضى وواراه التراب(٩٦).

ومن أحسن فصول الكتاب إبداعًا الفصل الذي يدور حول السُّلو، فهو يصور لنا الموت القاسي الذي لا يرد في صورة هي أقوى من الحب نفسه. والسلو أمر يُعاتَب فيه أو يُصفَح عنه حسب أسبابه، فإذا كان سببه الإعراض ومجرد الرغبة في التبديل فهو مذموم مستنكر، وأما إذا كان سببه الفراق الذي لا حيلة فيه أو البعد المحتوم عن الحبيب (كما حدث لابن حزم في هواه بإنسانة مجهولة)، أو جفوة الحبيبة أو خيانتها، فلا لوم فيه. وإذا كان الدافع إليه أمر فوق طاقة المحبّين، كالموت أو البعد الطويل، فلا عتب فيه على المحبين كذلك.

ويروي ابن حزم حكايات كثيرة عن الشهادة في سبيل الهوى، فيذكر لنا أخبار ناس ماتوا إذ فقدوا الحبيب، أو لأنهم لم يستطيعوا البوح بما ضمته جوانحهم.

ومن أغرب هذه الحكايات قصة رجل أندلسي «باع جارية كان يجد بها وجدًا شديدًا لفاقة أصابته من رجل من أهل ذلك البلد، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع. فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج، فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكَّمه في ماله أجمع وفي نفسه، فأبى عليه. فتحمل عليه بأهل البلد، فلم يسعف منهم أحدًا، فكاد عقله أن يذهب، ورأى أن يتصدى إلى الملك. فتعرض له وصاح، فسمعه فأمر بإدخاله، والملك قاعد في عِلِّية له مشرفة عالية، فوصل إليه فلما مثل بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه، فرقَّ له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر، فقال له: «هذا رجل غريب وهو كما تراه، وأن شفيعه إليك» فأبى المبتاع وقال: «أنا أشدُّ حبًّا لها منه، وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غدًا وأنا في أسوأ من حالته»، فرام به الملك ومن حواليه من أموالهم فأبَى، ولج واعتذر بمحبته لها.

فلما طال المجلس ولم يروا منه ألبتة جنوحًا إلى الإسعاف قال الأندلسي: «يا هذا، ما لك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدت لك بأبلغ سعي، وهو تراه يتعذر بأنه فيها أحب منك، وأنه يخشى على نفسه شرًّا مما أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك»، فقال له الأندلسي: «فما لي بيدك حيلة؟» فقال له: «وهل ها هنا غير الرغبة والبذل؟ ما أستطيع لك أكثر».

فلما يئس الأندلسي منها جمع يديه ورجليه وانصبَّ من أعلى العِلية إلى الأرض، فارتاع الملك وصرخ فابتدر إليه الغلمان من أسفل، فقُضي أنه لم يتأذَّ في ذلك الوقوع كبير أذى، فصُعد به إلى الملك فقال له: «ماذا أردت بهذا؟» فقال له: «أيها الملك، لا سبيل لي إلى الحياة بعدها»، ثم همَّ أن يرمي نفسه ثانية فمُنع، فقال الملك: «الله أكبر، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة». ثم التفت إلى المشتري فقال له: «يا هذا، إنك ذكرت أنك أودُّ لها منه، وتخاف أن تصير في مثل حاله»، فقال: «نعم».

قال: «فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقاه، وأنت قم فصحح حبك وترامَ من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك، فإن مِتَّ فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية، إذ هي في يدك، ويمضي صاحبك عنك. وإن أبيت نزعت هذه الجارية منك رغمًا ودفعتها إليه». فتمنع ثم قال: «أترامى!»، فلما قرب من الباب ونظر إلى الهَوِيِّ تحته رجع القهقرى، فقال له الملك: «هو والله ما قلت». فهمَّ ثم نكل، فلما لم يُقدم قال له الملك: «لا تتلاعب بنا!! يا غلمان خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض». فلما رأى العزيمة قال: «أيها الملك، قد طابت نفسي بالجارية»، قال له: «جزاك الله خيرًا»، فاشتراها منه ودفعها إلى صاحبها وانصرفا»[٩٧].

وكتاب ابن حزم هذا يقدم لنا تفاصيل عظيمة القيمة عن حياة الأندلسيين في بيوتهم خلال القرن الحادي عشر، فهو يصور لنا المآسي التي كانت تحدث في بيوت المساتير خفية تحت سُتُرٍ شتَّى على أيدي «بعض صنوف النساء، كالطبيبة والحجَّامة والسرَّافة والدلاَّلة والماشطة، والمغنّية، والكاهنة والمعلمة، والمستخفة والصُّناع في المغزل والمنسج وما أشبه ذلك»[٩٨].

ويحدثنا بقصص المحبين ذوي الحيلة والابتكار أو المستهترين والأنذال، ويذكر كيف أن سيدة من شريفات أهل قرطبة قضت ليلة كاملة متدثرة بملابس بعلها المتوفى، ويحدثنا عن المنصور بن أبي عامر في علاقاته بمن كان يهوى من النساء، فيذكر أنه كان ملولاً من النساء «يرى الجارية فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه؛ حتى يملكها ولو حال دون ذلك شوك القتاد. فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفارًا، وذلك الأنس شرودًا، والقلق إليها قلقًا منها، ونزاعه نحوها نزاعًا منها، فيبيعها بأوكس الأثمان. هذا كان أكثر دأبه؛ حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عددًا عظيمًا .. ولقد مات من

محبته جَوَارٍ كُنَّ علّقن أوهامهن به، فخانهن فيما أملنه منه فصرن رهائن البلى وقتلهن الوجد»[٩٩].

ويروي لنا كذلك كثيرًا من مآسي المروانيين (بني أمية)، ويذكر كيف أن بعضهم قضى نحبه شهيد الهوى. والكتاب إلى ذلك حافل بالمعلومات القيمة عن حياة ابن حزم نفسه، نتعرف منها شيئًا من أخلاقه وما عرض له من الحب، ونلم بالكثير عن أصحابه ووقائع حياته السياسية.

كل هذا يضمه «طوق الحمامة» إلى جانب تحليل عاطفة الحب وما يتصل بها تحليلاً نفسيًا لطيفًا، فضلاً عما يضمه الكتاب من مقطعات شعر ابن حزم الجميل، وقد تحدثنا عنه فيما سلف (ف ١٩).

هذا، ويحدثنا الحميدي - وكان تلميذًا لابن حزم وشديد الصلة به - عن «ديوان» يجمع شعر ابن حزم، وقد ضاع هذا الديوان. وأورد السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (جـ٢، ص ١٨٤) نص قصيدة لابن حزم - في سياق كلامه عن رسالة بعث بها إمبراطور الروم نقفور فوكاس إلى الخليفة المهدي يذم فيها الإسلام - وقصيدة ابن حزم هذه أقرب إلى أن تكون مديحًا للإسلام منه إلى نقض النصرانية.

ف ٧٥ - مدرسة ابن حزم

ولم تلبث طريقة ابن حزم - بعد تطبيقها على علوم الدين والفقه - أن أصبحت مذهبًا بذاته حلَّ محل المذهب الظاهريّ، وكوّن أتباعه فرقة عُرفت «بالحزمية»، نذكر من رجالها ممن أخذ عن ابن حزم مباشرة صاعدًا الطليطلي (ف ٧٦)، والفقيه المحدث ابن عبد البر (ف ١٢٠)، وأبا النجاة سالم بن أحمد بن فتح القرطبي (توفي ١٠٦٨/٤٦١) الذي ارتفع بنفسه عن طريق الدراسة من رفّاء بسيط إلى كاتب أمير، وقد اجتهد في إذاعة نسخ مؤلفات ابن حزم، والحميدي المحدث المؤرخ، وشريح بن

محمد بن شريح الرعيني المقرئ المحدّث (٤٥١ - ٥٣٩/ ١٠٥٩ - ١١٤٤)، وأبي محمد بن العربي والد الفقيه المعروف أبي بكر بن العربي.

وقد انتقل مذهب ابن حزم إلى المشرق وذاع بين أهله، وأثنى أبو حامد الغزالي على بعض كتبه[١٠٠]، واختصه الجغرافي المؤرخ ياقوت الحموي بترجمة طويلة وافية. أما في المغرب والأندلس فإننا نجد طائفة كبيرة من المؤلفين حملت مؤلفاتهم طابع «المذهب الحزمي»، ومن أولئك محمد الأنصاري الحَوْدي، وأبو بكر بن باشر الأنصاري، وخضر بن محمد بن نمر التجيبي وغيرهم. ونصادف كذلك خصومًا لمذهب ابن حزم وطريقته، ومن أولئك الفقيه الأشعري أبو بكر بن العربي، وأبو بكر عبد الله بن طلحة بن محمد اليابري[١٠١] وغيرهم كثيرون.

وقد مال محمد بن تومرت مهدي الموحدين إلى مذهب ابن حزم، إذ وجد فيه ما يؤيد دعوته. ووصل نفر من فقهاء الحزمية إلى كبار المناصب، ومن أولئك الفقيه الغرناطي أبو سليمان بن حوط الله، وقد ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسَلا وميورقة، وعلى بن عبد الله بن يوسف بن خطاب المعافري قاضي إشبيلية، والحافظ أبو بكر بن سيد الناس خطيب مسجد تونس، وأبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل المعروف بابن الرومية[١٠٢] النباتي الإشبيلي المعروف، وأبو الخطّاب بن دحية الذي أنشأ له سلطان مصر «الكامل الأيوبي» مدرسة الحديث الكاملية ليُقرئ الطلاب فيها. ومن أتباع المذهب الحزمي - أو الآخذين بناحية منه - محيي الدين بن عربي (ف ١١٣)، والفيلسوف ابن رشد (ف ١٠٨).

وقد أسرع المذهب الحزمي إلى الزوال بعد انقضاء أمر الموحدين، ولم نعد نجد من أتباعه خلال القرن الثالث عشر الميلادي إلا عددًا قليلاً من الناس، مثل أثير الدين أبي حيّان النحوي (ف ٦٠)، وأحمد بن صابر القيسي الشاعر وكان كاتبًا للأمير أبي سعيد فرج وهو ابن محمد بن نصر أول سلاطين بني الأحمر.

وفي مصر نشهد آخر مظهر لوجود المذهب الحزمي، فقد اجتهد أحمد البرهان (٧٠٣-٨٠٧/ ١٣٠٤ - ١٤٠٥) في إحياء معالم ذلك المذهب على غير جدوى؛ وممن أثنى عليه تقي الدين المقريزي (٧٦٥ - ٨٤٥/ ١٣٦٤ - ١٤٤٢)، وعبد الوهاب الشعراني الصوفي المشهور (المتوفى سنة ١٥٦٥/٩٧٢)، ونشهد في مراكش شيئًا شبيهًا بذلك في تضاعيف الحركة السياسية العنيفة التي أثارها أبو عبد الله محمد الأندلسي نزيل مراكش على أيام مولاي عبد الله الغالب (٩٦٤ - ٩٨٠/ ١٥٥٧ - ١٥٧٣)؛ وقد مات أبو محمد الأندلسي على يدي خليفة مولاي الغالب، وهو الشريف المتوكل، إذ صلبه على باب داره؛ ومات المتوكل نفسه ميتة بشعة، إذ قُتِل أثناء هزيمة «القصر الكبير» Alcàzarquivir وهلك معه في نفس الموقعة حليفه سباستيان ملك البرتغال.

ف ٧٦ - أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد الطليطلي (٤٢٠ - ٤٦٢/ ١٠٢٩ - ١٠٦٩)

ولد في المرية وسكن قرطبة، وكان تلميذًا لابن حزم، وقد ولي قضاء طليطلة ليحي بن ذي النون، وهو مشهور بمؤلفه التاريخي «طبقات الأمم» (طبعة الأب لويس شيخو الكرملي في سنة ١٩١٢)، وهو موجز للتاريخ البشري.

درس صاعد في كتابه هذا أمم (أجناس) البشر، كالفرس والكلدانيين واليونانيين (الإغريق) والروم والقبط (المصريين) والهنود وأهل الصين. «وهذه الأمم - على كثرة فرقهم وتخالُف مذاهبهم - طبقتان: فطبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم وصدرت عنها فنون المعارف؛ وطبقة لم تُعنَ بالعلم عناية تستحق بها اسمه أو تعدّ من أهله، فلم تنقل عنها فائدة حكمة ولا رويت لها نتيجة فكرة.

فأما الطبقة التي عنيت بالعلوم فثمانية أمم: الهند والفرس والكلدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب، وأما الطبقة التي لم تُعنَ بالعلوم

فبقية الأمم بعد مَن ذكرنا من الصين ويأجوج ومأجوج والترك وبرطاس والسرير والخزر وجيلان وطبلشان ومدقان وكشك والصقالبة والبرغر والروس والبرجان والبرابر، وأصناف السودان من الحبش والزنج وغانة وغيرهم»[١٠٣].

ثم يوجز بعد ذلك تاريخ كل أمة من أمم الطائفة الأولى، ويعدد مزايا أهلها، ويذكر ما برز فيه أهلها من أصناف العلوم، ومن ظهر فيها من الأعلام في كل فن. وقد أثنى جايانجوس على الجزء الذي تحدث فيه صاعد عن اليونان والرومان، لكونه صادرًا عن مؤلف مفكر عربي، فهو يدلنا على ما عرف العرب من علوم هاتين الأمتين[١٠٤].

وقد احتفظ لنا المقرى كذلك فيما أورده من «ذيل ابن سعيد على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس» مؤلفًا باسم «كتاب التاريخ» وضعه أبو جعفر بن عبد الحق الخزرجي «بدأ فيه من الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن. وقال ابن غالب صاحب «كتاب فرحة الأنفس» عن الخزرجي: إنه فارقه سنة ٥٦٥ (١١٦٩م)»[*].

ف ٧٧ - تواريخ الدول

حظيت دول الطوائف التي قامت بعد انتثار الخلافة الأموية الأندلسية بعناية نفر من المؤرخين، فانصرفوا إلى ذكر أخبارها. فكتب ابن معمر (عبد الرحمن بن محمد، ويكنى أبا الوليد، توفي سنة ٤٢٣/ ١١٣١) تاريخًا «للدولة العامرية إلى آخرها»[١٠٥]، وكذلك صنّف حسين بن عاصم (المتوفى سنة ٤٤٩/١٠٥٨) كتاب «المآثر العامرية» في سيرة المنصور محمد بن أبي عامر وغزواته وأوقاتها[١٠٦]. وكذلك أشاد بأعمال المنصور نظمًا أحمد بن درّاج القسطلي (المتوفى سنة ٤٢١/١٠٣٠) وعبد

(*) نفح، جـ٢، ص ١٢٣.

الملك بن مروان الجزيري(*)[١٠٧].

وقد كتب محمد بن يوسف الشلبي (عاش بين القرنين الخامس والسادس الهجريين) تاريخًا لبني عباد أصحاب إشبيلية، وعني أبو بكر ابن اللبانة الداني صديق المعتمد بجمع أشعارهم.

وعندما خلع المرابطون عبدَ الله بن بلكين - حفيد باديس بن زيري - عن عرشه ونفوه إلى المغرب، عكف على تدوين مذكراته وجعل عنوانها «التبيان عن الحادثة الكائنة على غرناطة»، سجل فيها بيده تاريخ بني زيري في الأندلس تسجيلاً فريدًا صادرًا عن رجل منهم، وأورد فيه من الملاحظات الدقيقة والمعلومات القيّمة ما يندر أن نجده في أثر آخر من آثار التاريخ الإسلامي[١٠٧].

❁❁❁❁

(*) عدلتُ هذه الفقرة بعض الشيء.

٢ـ عصر المرابطين والموحدين

ابن صاحب الصلاة - بنو سعيد: علي بن سعيد المغربي - عبد الواحد المراكشي وغيره من المؤرخين المراكشيين - النويري

لم يُخرج هذا العصر مؤلفات ذات شأن في التاريخ، وإن كان أهله قد خلّفوا لنا عددًا طيبًا من معاجم التراجم؛ ثمَّ إنَّ القليل من المؤلفات التاريخية الذي تنسبه المراجع إلى هذا العصر قد ضاع معظمه، ولا نظفر بمؤرخ ذي أهمية إلا في العصر الذي تلاه، عصر انهيار سلطان المسلمين من الجزيرة انهيارًا متصلاً واضحًا، هنالك نلقى ابن سعيد المغربي.

ف ٧٨ - ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن علي بن إبراهيم أبو مروان الباجي

تُحدثنا المراجع أن ابن الصيرفي (أبا بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المتوفى سنة ٥٥٧/ ١١٧٤) كاتب الأمير المرابطي أبي حامد بن تاشفين (٥١٩ - ١١٢٦/٥٣٠ - ١١٣٦) كتب كتابًا في «أخبار دولة لمتونة»[١٠٨]، وأن أبا الحسن السالمي - الذي يشير ابن الأبار إلى كتاباته كثيرًا - كتب كتابًا في «أخبار الفتنة الثانية بالأندلس» روى فيه أخبار الصراع بين المرابطين والموحدين، وبدأ من سنة ١١٤٤/٥٣٩ ورتّبه على السنين، وبلغ به سنة ١١٥٣/٥٤٧، ولكننا لم نعثر إلى الآن على هذين الكتابين، وكذلك ضاع كتاب في «فضائل أهل المغرب» لليسع بن عيسى بن حزم الغافقي (المتوفى سنة ١١٧٩/٥٧٥).

وهو من أهل بلنسية وأصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة، يكنى أبا يحيى، وله تأليف سماه «المُعرب في محاسن المغرب»، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية، بعد أن وصل إليها من الأندلس سنة ١١٦٤/٥٦٠[١٠٩].

وكذلك ضاع كتابان آخران لأبي القاسم بن البرّاق الوادي آشي في «تاريخ الأندلس» و«تاريخ معاوية» ومدحة في النبي ﷺ. وليست هذه الكتب كلها بذات أهمية كبيرة، وأهم منها كتاب ابن عبد الملك بن صاحب الصلاة البرجي المتوفى سنة ٥٧٧ /١١٨٢ المسمى «المنُّ بالإمامة على المستضعفين، بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدي وتاريخ الموحدين» في تاريخ المرابطين والموحِّدين، ولدينا الجزء الثاني منه ويبدأ بأخبار ثورة محمد بن سعد بن مردانيش على الموحدين في مرسية وشرق الأندلس في سنة ١١٥٩/٥٥٤، وينتهي في سنة ١١٨٤/٥٨٠. [وقد هيَّأ هذا الجزء للطبع الأستاذ إميليو غرسية غومس]، وأسلوب ابن صاحب الصلاة رشيق، وقد أجمع كُتَّاب المسلمين على القول بأن كتابه هذا من أحسن ما كُتِب في تاريخ المرابطين (والموحِّدين) وقد اعتمد عليه من أتى بعد ابن صاحب الصلاة من المؤرخين[١١٠].

ف ٧٩ - بنو سعيد

عني بنو سعيد بالأدب وظهر من بينهم كثير من أهله، وقد ألمنا فيما سلف بذكر أبي جعفر بن سعيد صاحب حفصة الركونية (ف ٤٠)[١١١]، ومن أهل الأدب من بني سعيد أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (المتوفى سنة ٦٤٠/ ١٢٤٢)، وكان جمّاعة للكتب وبلغ من شغفه بها ما حكاه ابنه علي بن سعيد من أنّه بعد أن ولاه ابن هود الجزيرة الخضراء، «أعلمه شخص أن عند أحد المنسوبين إلى بيت نباهة كراريس من شعر شعرائها وأخبار رؤسائها الذين تحتوي عليهم دولة بني عبد المؤمن، فأرسل إليه راغبًا في استعارتها فأبى وقال: «عليَّ يمين ألا يخرج من منزلي» وقال: «إن كانت له حاجة يأتي على رأسه»، وكان جاهلاً، فلما سمع والدي ضحك وقال: «سر معي إليه» فقلت له: «ومن يكون هذا حتى نمشي له على هذه الصورة؟» فقال: «إني لا أمشي له، ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم. أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أنفت أن أمشي إليهم؟»، قلت: «لا»، قال: «فإن الأثر ينوب عن العين». فمشينا إلى منزل الرجل

فوالله ما أنصفنا في اللقاء، فلما قضينا منها الفرض صرفها إليه والدي وشكره، وقال: «هذه فائدة لم أجدها عند غيرك فجزاك الله خيرًا» ثم انفصل وقَالَ : «ألم تعلم يا بُني أني سُررت بهذه الفائدة أكثر من الولاية؟ وإنَّ هذا والله أول السعادة وعنوان نجاحها.»[١١٢].

لوحكى ابنه علي بن سعيد عنه أيضًا قائلاً: «ومما شاهدته من عجائبه أنه عاش سبعًا وستين سنة، ولم أره يومًا يتخلى من مطالعة كتاب أو كَتْب ما يخلده؛ حتى أيام الأعياد لا يخليها من ذلك. ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب فقلت له: «يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح؟» فنظر إليّ كالمغضب وقال: «أظنك لا تفلح أبدًا! أترى الراحة في غير هذا؟ والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولوددت أن الله يضاعف عمري؛ حتى أتم كتاب المُغرب على غرضي»، وقال: «فأثار ذلك خاطري أن صرت مثله لا ألتذُّ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشأن، ولولا ذلك لما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه»[١١٣].

وقد اشترك بنو سعيد في تأليف كتاب «المغرب»، وهو إكمال لما أراده الحجاري عندما كتب كتابه «المسهب» وهو وضع تاريخ كامل للأندلس. وبدأ بذلك منهم عبد الملك بن سعيد (المتوفى سنة ٥٦٠/١١٩٤)، ثم تابع عمله ابناه محمد (٥١٩ - ٥٨٩/١١٢٥ - ١١٩٣) وأبو جعفر أحمد (المتوفى سنة ٥٥٩/١١٦٣) ثمَّ موسى بن محمد بن سعيد (المتوفى سنة ٦٤٠/١٢٤٣) وأئمة آخرهم وواسطة عقدهم أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (٦٠٩ - ٦٧٣/١٢١٣ - ١٢٧٤).

وقد وُلد أبو الحسن علي بن سعيد المغربي فيما بين سنتي ٦٠٥/١٢٠٨ و ٦١٠/ ١٢١٤ في قلعة يَحصُب Alcalà la Real[١١٤]، ودرس اللغة والشعر على أبي علي الشلوبيني وأبي الحسن الدبَّاج وابن عصفور وغيرهم في إشبيلية، ثم رحل إلى المشرق في صحبة والده للحج. وتوفي أبوه سنة ٦٤٠/ ١٢٤٣ بالإسكندرية، فذهب ابن سعيد

إلى القاهرة وأقام بها إلى سنة ١٢٤٧/٦٤٤؛ ووفد على مصر في ذلك الحين كمال الدين عمر بن محمد بن أبي جرادة - المعروف بابن العديم - فاتصل به عليّ بن موسى، وحبب إليه ابن العديم الرحلة معه إلى حلب؛ وزار في رحلته تلك دمشق والموصل والبصرة وأرجان، يقرأ على الشيوخ والفقهاء ويطلع على الكتب، ثم حج إلى بيت الله الحرام وعاد إلى مصر فالمغرب. وفي سنة ١٢٥٤/٦٥٢ نجده في تونس ؛ حيث طال مقامه فيها ودخل في خدمة أميرها أبي عبد الله المستنصر الحفصي (٦٤٧ - ١٢٤٩/٦٧٥ - ١٢٧٦)، ثم رحل إلى المشرق مرة أخرى (١٢٦٧/٦٦٦) ؛ حيث أدركته المنية في دمشق سنة ١٢٧٤/٦٨٥.

والاسم الكامل للكتاب المعروف بالمُغرب هو «كتاب فلك الأرب، المحيط بحلي لسان العرب»؛ وينقسم إلى كتابين كبيرين: «المُغرب في حلى المَغرب»، و«المُشرق في حلى المَشرق»[١١٥]. والأول تاريخ للمغرب والأندلس فيما بين سنتي ٥٢٩ و١١٣٥/٦٤٠ و ١٢٤٣، وقد أكثر المؤرخون من النقل عنه، وكان يقع في خمسة عشر مجلداً ولم يبق لنا منها إلا العاشر والحادي عشر وموضوعهما جغرافية الأندلس وصفة نواحيها، وقد احتفظ لنا المقرى بهذا الجزء.

أما بقية ما بين أيدينا من هذين الجزءين من موسوعة بني سعيد، فتوجد مخطوطة بدار الكتب المصرية بخط علي بن سعيد نفسه، وقد نسخت منها صورة توجد في مكتبة مجمع التاريخ الإسباني في مدريد، وهي أوراق متناثرة في غير نظام تدور حول المغرب ومصر. ثم عثر معهد المخطوطات التابع للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية في القاهرة على قطعة جديدة من «المُغرب» ضمت نحو ٢٣٠ ورقة منه، اتضح أنها جزء من مخطوطة القاهرة، وقد جمع هذه الأوراق كلها ورتّبها الدكتور شوقي ضيف واستطاع أن يتبين النظام العام لهذا الكتاب، وإليك طرفًا من كلام

الدكتور ضيف في تقديمه للجزء الذي نشره من «المُغرب»(*):

«من يرجع إلى مقدمة «المُشْرق في حلي المَشرق» يجد عليّ بن سعيد يوضح منهج التأليف فيه وفي المُغرب بقوله: «كل من التصنيفين مرتّب على البلاد، متى ذُكر بلد ذكرتُ كُوَره، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه .. وأبتدئ بكرسي مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ إعلمي من إعلام بمكانها من الأقاليم ومَن بناها وما يحف بها من نهر أو مَنْزَهٍ أو خاصة معدنية ونباتية، ومَن تداول عليها من أبناء الملوك أولي التواريخ التي لا يجب إغفالها. ثم نأخذ في الطبقات واحدة بعد الأخرى، وهي خمس: طبقة الأمراء، وطبقة الرؤساء، وطبقة العلماء، وطبقة الشعراء، وطبقة اللفيف. لوالأربع الأولى] مخصوصة بمن له نظْم من أولى الخطط المذكورة، ولها تفسير تقف عليه في مواضعه. وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أي صنف كان، ممن لا يجب إغفاله، وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون لمثل] الأحماض».

«وهذا المنهج العام لتأليف «المُشرق والمُغرب» جميعًا طبَّقه علي بن سعيد على هذا النص الخاص بالأندلس تطبيقًا دقيقًا، فبدأه بالحديث عن الأندلس وخصائصها وفضائلها، ثم خرج إلى كُوَر الأندلس كُورةً كورةً. وقد سمَّى هذا القسم كله الخاص بالأندلس «كتاب وَشْي الطرس في حُلى جزيرة الأندلس».

ثم رجع فقسَّم الأندلس إلى غرب ومَوْسطة وشرق، وأفرد لكل قسم كتابًا: فسمى كتاب الغرب «كتاب العُرُس في حُلَي غرب الأندلس»، وسمَّى كتاب الموسطة «كتاب الشفاء اللُّعُس في حلي موسطة الأندلس»، وكتاب الشرق «كتاب

(*) عدلت هذه الفقرة بما يناسب ما وصلنا إليه من العلم بكتاب المغرب. وأحيل القارئ على صلة كتابنا هذا للإلمام بأعمال بني سعيد عامة.

الأنس في حلي شرق الأندلس». ثم أخذ يقسِّم كل كتاب من الكتب الثلاثة إلى ممالك، وقسم كل مملكة إلى كورها المختلفة، ووزع على ذلك كله الطبقات الخمس التي سماها في مقدمة «المُشرق». وكل مملكة، بل كل كورة، بل كل بلدة في كورة، نجد لها كتابًا مفردًا. وقد قسم الغرب إلى سبع ممالك، وبعبارة أخرى إلى سبعة كتب تدور حول: قرطبة، وإشبيلية، وبَطَلْيَوْس، وشِلْب، وباجة، وأشْبُونة، ومالقَة.

«وعلى نحو تقسيمه للغرب إلى كتب سبعة باعتبار الممالك، قسم الوسطة إلى أربعة كتب تدور حول: طُلَيْطِلَة، وجَيّان، وألْبيرَة، والمَرِيَّة.

«وقسم الشرق باعتبار ممالكه إلى ستة كتب تدور حول: تُدْمير، وبَلَنْسِيَّة، وطَرْطُوشة، والسَّهْلَة، وجهات الثغر، وميورقة.

«وكل كتاب لمملكة من هذه الممالك ينقسم بدوره إلى كتب كورها المختلفة، فالكتاب الأول الخاص بملكة قرطبة ينقسم إلى أحد عشر كتابًا تدور حول كور: قرطبة، وبَلْكونة، والقُصَيْر، والمدوَّر، ومُرَاد، وكُزْنَة، وغافق، وإسْتَجة، والقَبْرِيَّة، وإسْتَبَّة، واليُسَانة.

«وكل كتاب من هذه الكتب الخاصة بالكور ينقسم بدوره إلى كتب باعتبار البلدان المهمة في الكورة، فكتاب الكورة القرطبية مثلاً ينقسم إلى خمسة كتب تدور حول: حضرة قرطبة، وحضرة الزهراء، وحضرة الزاهرة، ومدينة شَقُنْدَة، وقرية وَزَغَة»[١١٦].

وتُحدثنا الكتب عن مصنفات أخرى لعلي بن سعيد، عن علماء عصره وشعرائه، مثل: «رايات المبرزين»، و«عنوان المرقصات»، و«المقتطف من أزاهر الطرف»، وقد سبقت الإشارة إليها. وكتَب في تاريخ غير العرب وشعوب المغرب،

وألّف كذلك تاريخًا لأهل بيته سمّاه «الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد»[١١٧]، ووضع كتابًا عن شعراء الأندلس في القرن السابع الهجري سماه: «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة»، وجمع أشعاره في ديوان رتبه على حرف المعجم[١١٨] (انظر نموذجًا منها في فقرة ٤٠)، ومجموعات من مختارات النظم والنثر منها: «عدة المستنجز وعقلة المستوفز»، و«القدح المعلى في التاريخ المجلى».

أما في الجغرافية فقد وضع مختصرًا لجغرافية بطليموس اعتمد عليه أبو الفداء في تأليف جغرافيته، هذا بالإضافة إلى المقدمة الجغرافية العامة لكتابي المُشرق والمُغرب، وهي المعروفة «بفلك الأرب» وقد ذكرنا أن المقرى احتفظ لنا بجزء منها في صفة الأندلس. وألف كذلك كتابًا عن رحلته الثانية إلى المشرق، وآخر عن رحلته إلى مكة هو «النفحة المسكية في الرحلة المكية»[١١٩].

وقد أضاف ابن سعيد إلى رسالة ابن حزم ذيلاً ألمَّ فيه بمن لم يذكرهم ابن حزم من علماء الأندلس وأدبائه ومؤلفاتهم في كل فن[١٢٠]، احتفظ لنا المقري بنصه في النفح (ف ٧٢).

وقد نقل المقرى من مؤلفات ابن سعيد فقرات طوالاً أوردها في «نفح الطيب» ووصفه ابن الخطيب بقوله: «علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر بن كنانة بن قيس بن الحصين العنسي المدلجي. من أهل قلعة يحصب، غرناطي قلعي، سكن تونس؛ أبو الحسن بن سعيد. وهذا الرجل وسط عقد بيته، وعَلَم أهله، ودرة قومه. المصنف الأديب، الرحّال الطرفة الأخباري، العجيب الشأن في التجول في الأقطار، ومداخل الأعيان، والتمتع بالخزائن العلمية، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية»[١٢١].

وقد اعتمد ابن سعيد في جغرافيته على مؤلفات الإدريسي ونقل منها، وأضاف

إليها مواقع البلاد من بروج الفلك، وهو يذكر جغرافيًا آخر أخذ منه يسمَّى «ابن فاطمة»؛ ولكن ابن سعيد يخلط بين الأقاليم بعضها وبعض في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى يشوب أوصافه الخطأ. وقد وثق أبو الفدا أول الأمر ثقة تامة فيما كتبه ابن سعيد عن المغرب والأندلس، ثم تبين أخطاءه فيما بعد فعاد إلى ما أخذ عنه وصححه وأسقط بعضه عندما صاغ كتابه الصياغة الأخيرة. وهذا العيب يشوب كذلك ما كتب ابن سعيد في التاريخ، إذ إننا نراه يقبل الخرافات والأساطير ويرويها على أنها من التاريخ، ولكنَّ كُتبه كانت على الجملة موردًا خصبًا لغيره ممن أتى بعده. وقد أثنى عليه أبو الفدا والمقريزي وابن خلدون وابن خلكان والمقرى وغيرهم[١٢٢].

ف ٨٠ - عبد الواحد المراكشي

إذا ذكرنا العلاقة الوثيقة التي ربطت بين تاريخي الأندلس والمغرب خلال العصر الموحدي، لم يكن من الغريب أن نلم هنا بذكر عبد الواحد المراكشي (٥٨١ - ١١٨٥/٦١٨ - ١٢٢٢).

ولد عبد الواحد في مراكش[١٢٣]، ودرس في فاس؛ حيث توثقت صلاته بأبي بكر بن زهر وبأحد أبناء ابن طفيل، ثم رحل إلى الأندلس ودرس على كبار شيوخه وأساتذته. وعندما حل بإشبيلية قدَّمه صديق له يسمى محمد بن الفضل إلى السيِّد إبراهيم بن أبي يعقوب يوسف - وكان أخًا للخليفة الموحدي الناصر ووالِيًا لإشبيلية - وأصبح عبد الواحد من أصحابه وجُلاَّسه.

وكان الرجل - سواء في مراكش أم في الأندلس - على صلات بأهل الدولة، ومن ثَمَّ أتيحت له فرص ممتازة مكَّنته من كتابة تاريخه البديع المسمى «المُعجب في تلخيص أخبار المغرب» وقد فرغ سنة ١٢٢٤/٦٢٠ (نشره دوزي سنة ١٨٤٧[١٢٤]، وأعاد طبعه في سنة ١٨٨١، وترجمه فانيان إلى الفرنسية ونشر الترجمة في الجزائر في سنة

١٨٩٣)؛ وهو يضم طائفة قيِّمة من أخبار الموحدين، شهد بعض حوادثها بنفسه أو رواها عمن شهدها. أما ما ساقه من أخبار المغرب والأندلس -من الفتح الإسلامي إلى قيام الدعوة الموحدية- فقد نقله عن مؤلفات للحميدي، لا نجدها بين أيدينا الآن.

وهناك مؤرخ مغربي آخر أفادتنا كتاباته عن تاريخ الأندلس فائدة كبرى، وهو أبو العباس أحمد بن عذارى المراكشي، من أهل القرن الثالث عشر الميلادي. وليس بين أيدينا من المعلومات عنه إلا نزر يسير، وكتابه المسمى «البيان المغرب» ذو قيمة تاريخية كبرى، إذ يحوي فقرات هامة من مؤلفات أخرى عبثت بها يد الزمان[١٢٥].

وقد عثرنا على كتاب مخطوط في التاريخ يحمل عنوانًا ظاهر الخطأ، وهو «كتاب التواريخ المعروف بابن بسام»، وعُرف في المؤلفات الأوروبية باسم «الكتاب المجهول المؤلّف، الموجود في كوبنهاجن ومدريد»؛ لأن نسخته الأولى وُجِدَت في كوبنهاجن، ثم عُملت منه نسخة خطية حُفِظَت في مكتبة مدريد. وقد اطّلع عليه دوزي وأحجم عن نشره، لكثرة ما يرد فيه من الأخطاء والتحريفات، ورأى أنه لا بد أن يكون جزءًا من البيان المغرب لابن عذارى، ثم عني به بِسْتهُورن وأبان قيمته التاريخية وقرر أن مؤلفه مراكشي، وقام بنشره أمبروزيو هويثي في مدريد ١٩١٧، والكتاب يدور حول تاريخ الموحدين، ويضم معلومات قيِّمة عن تاريخ الغرب الإسلامي في هذه الفترة.

وكان بروفنسال قد عثر على قطعة كبيرة من البيان تصل تاريخ الأندلس من حيث وقف به دوزي، فنشرها في سنة ١٩٣٠ على أنها الجزء الثالث من البيان، ثم تبين له بعد ذلك أنها قطعة من الجزء الثاني من ذلك الكتاب بحسب برنامجه كما رسمه ابن عذارى، (انظر التعليق).

وقد عثر ليفي بروفنسال وكولان على جزءين كبيرين من البيان المغرب يضمان

الجزء الأول والثالث من الكتاب كله، وقد قال ابن عذارة في فاتحة كتابه : إنه قسَّم كتابه على ثلاثة أجزاء مرتبة كما يلي:

الأول: يتناول أخبار إفريقية، من الفتح الإسلامي إلى ابتداء دولة المرابطين.

الثاني: أخبار الأندلس، من الفتح الإسلامي إلى دخول المرابطين في سنة ٤٧٨/ ١٠٨٥.

الثالث: أخبار المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، وتاريخ الحفصيِّين في إفريقية، وبني هود وبني نصر في الأندلس. ثم ألمَّ بذكر الدولة المرينية.

وقال ابن عذارى في نهاية برنامج الكتاب: «اختصرت من ذلك كله ما اشتهر أمره وأمكنني ذكره، وذكرت من البيعات والرسائل السلطانيات، وما تعلق بها وكان بسببها من الوقائع المذكورات والأمور المشهورات، وذلك إلى انقضاء الدولة الموحدية واستيلاء الإمارة اليوسفية المرينية على حضرتهم المراكشية على مرور السنين إلى عام ٦٦٧».

وقد تبين من الاطلاع على المجلد الثاني الذي عُثر عليه، أن الكتاب الذي ذكرناه المعروف إلى الآن «بالكتاب المجهول المؤلِّف الموجود في كوبنهاجن ومدريد»، إنما هو نسخة مختصرة بعض الشيء من ذلك الجزء الثالث من البيان المغرب. ومن الطريف أن دوزي رأى ذلك بمجرد اطلاعه على المخطوط منذ قرن كامل، مما يعطينا نموذجًا من حصافة هذا العلاَّمة النابه.

هذا وقد أشار ابن عذارى إلى أنه كتب كتابًا آخر اسمه «البيان المُشرق في أخبار المَشرق»، ولكننا لم نعثر عليه.

وقد بدأ ليفي بروفنسال وكولان في نشر «البيان» من جديد، وظهر منه الجزء الخاص بتاريخ المغرب إلى نهاية الزيرين (لايدن ١٩٤٨)(*).

ومن المؤلفات الهامة في تاريخ المغرب والأندلس كتاب «روض القرطاس في أخبار ملوك الغرب ومدينة فاس»، الذي ينسب تارة إلى أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع - كاتب خامس سلاطين بني مرين - وتارة أخرى إلى مؤلّف يسمى أبا محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي. وقد نشره تورنبورج في أبسالا سنة ١٨٤٣ مع ترجمة لاتينية، ونقله إلى الفرنسية بوميية Baeumier في سنة ١٨٦٠، وإلى الإسبانية أمبروزيو هويثي Ambrosio Huici في سنة ١٩١٨؛ وهو مؤلف قيّم يضم معلومات عظيمة القيمة عن تاريخ الغرب الإسلامي كله، منذ قيام دولة الأدارسة واختطاط مدينة فاس إلى عصر المؤلف(١٢٦).

ولا يفوتنا هنا الإلمام بما كتبه أحمد بن عبد الوهاب النويري عن تاريخ المغرب والأندلس، فقد اختصهما بجزءين من «نهاية الأرب» حافلين بالمعلومات. والجزآن اللذان يدوران على تاريخ المغرب والأندلس من موسوعة هذا المؤلف المصري هما الخامس والسادس من قسم التاريخ، وقد جمع فيها قطعًا من مؤلفات تاريخية ضاعت، وصاغها في أسلوب معتدل لا تحيز فيه. وقد نشر هذين الجزءين وترجمهما إلى الإسبانية م. جسبار ريميرو Mariano Gaspar Rimero في سنتي ١٩١٧و ١٩١٨، (ولدينا في دار الكتب المصرية مخطوطة جيدة تضم هذين الجزءين).

❁❁❁❁

(*) عدلت النص هنا بحسب ما وصلت إليه معلوماتنا عن البيان المغرب.

٤ مملكة غرناطة

ابن الخطيب وابن خلدون

تبلغ كتابة التاريخ في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الميلادي ذروتها عند علميْن من أعلام الفكر العربي، وهما ابن الخطيب المؤرخ المتفنن والسياسي الأديب، وابن خلدون مبدع فلسفة التاريخ.

ف ٨١ - ابن الخطيب[١٢٧]

لم يفتُر شغف الناس بالدراسات التاريخية خلال العصر الأخير من عصور تاريخ الأندلس الإسلامي، وهو عصر مملكة غرناطة. ومن الأدلة البيِّنة على ذلك قيام أبي عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم الرندي[١٢٨] (٦٥٩ - ٧٠٧/١٢٦١ - ١٣٠٨) بكتابة مؤلَّف في «تاريخ الأندلس» ضاع فيما ضاع من ثمرات الفكر الأندلسي؛ واهتمام ابن الفارق (المتوفى سنة ٦٩٠/١٢٩١) بتصنيف مؤلف في «تاريخ بني نصر»، وهو كتاب سطا عليه أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي النباهي (المتوفى حوالي سنة ٧٩٤/١٣٩١) في كتابه المسمى «نزهة البصائر والأبصار» الذي فرغ من تأليفه سنة ٧٨١/١٣٧٩، وقد أكثر لافوينتِ الكانتارا Lafuente Alcàntara من الاعتماد على هذا الكتاب.

بيد أن ابن الخطيب يغطي على أولئك جميعًا بشخصيته وسيرته ومؤلفاته. وُلد لسان الدين محمد بن الخطيب في لوشة في ٢٥ رجب سنة ٧١٣/١٦ نوفمبر ١٣١٣، ودرس في غرناطة وشغف بالعلوم الطبية والفلسفية وأقبل يدرسها على الطبيب المشهور يحيى بن هذيل. وظهرت براعته في قرض الشعر، وتجلى علمه الواسع بالأدب العربي في سنِّه الباكرة، وقد سُقنا فيما سلف نموذجًا من شعره (ف ٤٥). ثم أخذ ينظم القصائد في مديح يوسف الأول بن الأحمر، وطار شعره كل مطار، وأُعجب به أبو الحجاج يوسف (الثاني) بن محمد (الخامس) بن الأحمر (٧٩٣ - ٧٩٧/١٣٩٠ -

١٢٩٤) وأدخله في خدمته، وعمل مع الوزير أبي الحسن علي بن محمد بن الجياب الأنصاري الغرناطي «شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية»، كما يقول ابن خلدون: وعندما مات ابن الجياب في طاعون سنة ١٣٤٨/٦٧٣ حلَّ ابن الخطيب محله في الوزارة.

ووصل ابن الخطيب - بفضل مهارته وذكائه - إلى الحظوة من نفس السلطان أبي الحجاج يوسف، فأطلق يده في اختيار عمال الدولة على هواه. وجمع ابن الخطيب من ذلك مالاً كثيرًا، وعندما قُتِل يوسف خلفه ابنه محمد السابع الملقّب بالغني بالله بن يوسف الثاني دون البلوغ في جمادى الثانية ٢٩/٧٤١ نوفمبر ١٢٤١، فقام مولاه الحاجب رضوان بتصريف أمور المملكة، وأقام ابن الخطيب نائبًا له «وجعله رديفاً له في أمره ومشاركًا في استبداده معه».

وبلغ من علو منزلة ابن الخطيب واقتداره على القريض في هذه الحقبة من تاريخه أنّه وفد مع نفر من وزراء الأندلس وفقهائها على السلطان أبي عنان الحفصي أمير تونس طالبًا منه مددًا لحرب النصارى في الأندلس؛ يقول ابن خلدون: «واستأذنه [ابن الخطيب] في إنشاد شعر قدّمه بين يدي نجواه فأذن؛ فأنشد وهو قائم:

خليفةَ اللهِ ساعدَ القَدَرُ ... عُلاكَ ما لاحَ في الدُّجى قَمَرُ

ودافَعَتْ عنكَ كفُّ قُدرَتِهِ ... ما ليسَ يستطيعُ دَفْعَهُ البَشَرُ

وجهُكَ في النائباتِ بدرُ دُجى ... لَنا وفي المَحْلِ كفُّكَ المطَرُ

والناسُ طُرًّا بأرضِ أندلُسٍ ... لولاكَ ما أوطَنوا ولا عمَروا

وجُملَةُ الأمْرِ أنَّهُ وطَنٌ ... في غيرِ عَلْيائكَ ما لهُ وطَرُ

ومَنْ بهِ - مُذْ وصَلْتَ حبلَهُمُ - ... ما جَحَدوا نِعْمَةً ولا كَفَروا

وقـــــدْ أهَمّـــــتْهُم نُفوسُـــــهُمُ فوجّهونـــي إلَـــيْكَ وانْـــتَظَروا(*)

فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم. ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه»(*).

وعندما قام الرئيس أبو عبد الله محمد [ابن عم السلطان] بعزل محمد الخامس، وكبس الحاجب رضوان في بيته فقتله، أقام مكانه إسماعيل (الثاني) بن أبي الحجاج يوسف الثاني. «وأحسَّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان، فركب ناجيًا إلى وادي آش وضبطها، وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب، وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس. واعتقل الرئيسُ القائمُ بالدولة هذا الوزيرَ ابن الخطيب وضيّق عليه في محبسه. وكانت بينه وبين الخطيب بن مرزوق مودة استحكمت أيام مقامه بالأندلس - وكان غالبًا على هوى السلطان أبي سالم - فزين له استقدام هذا السلطان المخلوع من وادي آش، يعده زبونًا على أهل الأندلس، ويفك به عادية المرشحين هناك»، فبعث من قدم به. ولحق به ابن الخطيب «فأرغد السلطان عيشه في الجراية والأقطاع، ثم استيأس واستأذن السلطان في التجوال بجهات مراكش والوقوف على أعمال الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه فتباروا في ذلك وحصل منه على حظ ... واستقر [ابن الخطيب] بسَلا منتبذًا عن سلطانه طول مقامه بالعدوة».

ثم عاد السلطان محمد (السابع) الغني بالله المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ١٣٦٢/٧٦٣، فاستقدم ابنَ الخطيب «وأعاده إلى منزلته كما كان مع رضوان

(*) كذا في الأصل.

(*) ابن خلدون (برواية المقري): نفح (القاهرة: ١٩٤٩) جـ٧، ص ٢٧.

كافله». وأخذ ابن الخطيب يدبِّر على منافسه عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة؛ حتى نكبه السلطان وأباه وإخوته سنة ١٣٦٣/٧٦٤، «فخلا لابن الخطيب الجو وغلب على هوى السلطان، ودفع إليه تدبير الدولة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وعلقت به الآمال، وغشي بابه الخاصة والكافة، وغُصت به بطانة السلطان وحاشيته، فتوافقوا على السعاية فيه». واجتهد ابن الخطيب من ناحيته في إيقاع النُّفرة بين السلطان وأهل حاشيته، واستبد بأمر الدولة، ومضى يقسم الحظوظ بين الناس على هواه، فكثر خصومه واشتدت السعايات حوله.

«وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب، لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية به، وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه عليه، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب، واستأذن السلطان في تفقد الثغور وسار إليها في لمة من فرسانه، وكان معه ابنه علي - الذي كان خالصة للسلطان - وذهب لطيته، فلما حاذى جبلَ الفتح - فرضةَ المجاز إلى العدوة - مال إليه، وسرح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقيه.

وقد كان السلطان عبد العزيز [المريني] قد أوعز إليه بذلك، وجهَّز له الأسطول في حينه، فأجاز إلى سبتة وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتثال الأوامر؛ ثم سار لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامه من تلمسان، فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان التنويه والعزة، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مَدْيَن سفيرًا إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة».

وجعل ابن الخطيب يحضه على غزو مملكة غرناطة. وأفلحت سعايات خصوم

ابن الخطيب في تغيير صاحب غرناطة عليه، «وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة للزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه، ورفعت إلى قاضي الحضرة لحضرة غرناطة] أبي الحسن [النباهي] فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة. وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه، وبعث القاضي أبو الحسن النباهي إلى السلطان عبد العزيز [المريني] في الانتقام منه بتلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه، فصمّ لذلك وأبى لذمته أن تُخفر ولجواره أن يرد وقال لهم: «هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ أما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوراي»، ثم وفر الجراية والأقطاع له ولبيته ولمن جاء من أهل الأندلس في جملته».

فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان إلى فاس، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فنزل بفاس واستكثر من الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنان، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسومَ التي رسمها له السلطان المتوفى، واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره ....».

وما زال سليمان بن داود - رديف الوزير محمد بن عثمان في الوزارة للسلطان أبي العباس المريني في مراكش - يحتال حتى قبض على ابن الخطيب، وكان شديد العداوة له، وزعم أنه سيسلمه إلى ابن الأحمر صاحب غرناطة. واتُّهم ابن الخطيب بأنه ضمّن رسائله عبارة لا يرضاها الدين، وشكوه إلى القاضي فقضى بقتله، ولكن عبد العزيز المريني لم يسلمه على ما ذكرناه، إذ كان يرجو أن يستفيد منه إذ ذهب يغزو في الأندلس؛ ونجا ابن الخطيب إلى حين.

وشاء القدر أن يُتوفى ناصر بن الخطيب هذا في سنة ١٣٧٢/٧٧٤، وخلفه على العرش ابنه «السعيد» وكان طفلاً. وانتهز الفرصة بعض زعماء بني مرين ومضوا يدبرون للوثوب بالملك الطفل والمناداة بالأمير أحمد بن السلطان أبي سالم وذلك

بالاتفاق مع بلاط بني الأحمر ورجاله، وتم لهم الأمر رغم مقاومة الوزير أبي بكر ابن غازي -صديق ابن الخطيب- وخُلع الملك الطفل «السعيد» ونودي بأحمد ابن السلطان أبي سالم سلطانًا على دولة بني مرين في مراكش في أوائل سنة ١٣٧٤/٧٧٦.

ولم يكد الأمر يستتب للسلطان الجديد ؛ حتى أمر بالقبض على ابن الخطيب تنفيذًا لما تم بينه وبين ابن الأحمر من اتفاق، وكان سليمان بن داود - وزير ابن الأحمر وخصم ابن الخطيب اللدود - لا يألو جهدًا في الإيقاع به، وكانت نفس ابن الأحمر متغيرة على ابن الخطيب لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز المريني على محاربته. واشترك في السعي للقضاء على ابن الخطيب نفر غفير، منهم صديقه القديم أبو الحسن النباهي قاضي غرناطة وصاحب كتاب تاريخ قضاء الأندلس المسمى «بالمراقبة العليا»، وتلميذه ابن زَمْرَك الشاعر وهو الذي ندبوه للذهاب إلى فاس للعمل على الإجهاز على ابن الخطيب، فوجهوا إليه تهمة الزندقة وأهانوه أمام الملأ، وخشي الوزير سليمان بن داود أن ينجو ابن الخطيب فسارع فأمر بعض غلمانه سرًا بقتله، فخنق في محبسه سنة ١٣٧٤/٧٧٦ ودفن، ثم أصبح من الغد على شافة قبره طريحًا، وقد جُمعت له أعواد فأضرمت نارًا فاحترق شعره واسود بشره، ثم أعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته. وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان، واعتدوها من هنأته وعظم النكير فيها عليه»(*).

وقد كان البُخل والطموح إلى المجد سر مأساة هذا الكاتب الممتاز، الذي لم

(*) تابع المؤلف سيرة لسان الدين كما رواها ابن خلدون، فرجعت إلى الأصل وأتيت بكلام ابن خلدون بنصه.

انظر العبر: (القاهرة ١٢٨٤) جـ٧ ص ٣١١ - ٣١٢ و ٣٣٢ - ٣٣٦، وانظر: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، طبعة محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة ١٩٥١) الفهرس، مادة ابن الخطيب، ففيها كثير من التفاصيل.

تمنعه ظروف حياته المضطربة من تأليف كتب بالغة الأهمية والطلاوة.

لومن الغريب أنه كان مبتلى بداء الأرق؛ حتى كان لا ينام من الليل إلا شيئًا يسيرًا، ولهذا لقب «بذي العمرين»؛ لأنه أضاف بسهر الليل إلى عمره عمرًا ثانيًا.

وأول ما نذكره من كتبه «الإحاطة بتاريخ غرناطة» (مخطوط بمكتبة المجمع التاريخي الإسباني)[١٢٩]، وهو معجم أعلام جمع ابن الخطيب فيه سير النَّابهين من أهل مملكة غرناطة ومن وفد عليها وسكنها، وقسمه أقسامًا بحسب المنصب أو بحسب ناحية الامتياز: فقسم للملوك والأمراء، وثان للعمال، وثالث لذوي النباهة، كالقضاة والمتحققين بعلوم القرآن والمحدثين والفقهاء ومن إليهم، وأورد فيه ترجمة نفسه وذكر أسماء سبعة وثلاثين من مؤلفاته. وأسلوبه فيه مرصَّع فخم، وإن كان لا يصل في هذا الباب إلى شأو ابن بسام وابن خاقان. ولهذا الكتاب «ذيل توجد منه نسخة في مكتبة الإسكوريال. وقد قام بدر الدين البشتكي المصري في سنة ٧٩٣/ ١٣٩١ باختصار «الإحاطة» في كتاب سماه «مركز الإحاطة»، استبعد منه ذكر السلاطين والأمراء ولم يُبقِ فيه إلى على أهل الأدب. وقد صنع البشتكي مختصره هذا من نسخة أوفى من تلك التي نملكها اليوم، ولهذا فنحن نظفر فيه بقصائد، ومواد كاملة لا نجدها فيما بين أيدينا من نسخ الإحاطة.

وقد صنَّف ابن الخطيب في تاريخ خلفاء المشرق والمغرب والأندلس كتاب «الحلل المرقومة»[١٣٠] وضمَّنه بعض أخبار الأندلس والمغرب، ونظَّم بعض أحداث هذا التاريخ في قصيدته عن التاريخ.

وصنع موجزًا «لتاريخ إسبانيا» الذي ألَّفه الملك ألفونسو العاشر المعروف بالعالم، وقد نشر هذا الموجز ونبَّه إليه الأب ملشيور أنطونيا في مدريد سنة ١٩٣٣.

وألَّف في تاريخ غرناطة وبني نصر طائفة من الكتب منها «اللمحة البدرية في

الدولة النصرية»[١٣١]، وهو تاريخ لبني الأحمر سنة ١٣٦٣/٧٦٥، و«طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر».

وحشد ابن الخطيب مادة تاريخية طيبة عن خلفاء المشرق والمغرب والأندلس في كتاب «إعلام الأعلام بمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام»[١٣٢] (نشره ليفي بروفنسال في رباط الفتح سنة ١٩٣٣).

وألّف كتابه «التاج المحلى» عن أدباء الأندلس في القرن الثامن الهجري وعمل له ذيلاً عنوانه «الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر»، هذا بالإضافة إلى كتاب «الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة»، (وهو مخطوط بمكتبة مجمع التاريخ في مدريد).

وصف ابن الخطيب إلى جانب ذلك كتبًا وصف فيها بعض رحلاته وضمّنها معلومات قيمة عن بعض بلاد الأندلس، وخاصة ما كان منها في مملكة غرناطة، وأدرج في أوصاف الرحلات معلومات تاريخية طيبة ونافعة عن الأعلام والنابهين وما اتصل بعلمه من مكتبات، ومن هذه الكتب «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»، وقد جعلوا فصوله مجالسَ تحدث في كل مجلس منها عن بلد من بلاد الأندلس ومن ظهر به من المشاهير، وكتاب «المفاضلة بين مالقة وسلا» (نشر غرسية غومس سنة ١٩٣٤).

ومن فريد مؤلفات ابن الخطيب كتابه المسمى «ريحانة الكُتّاب ونجعة المنتاب» (نشر قطعًا منها جسبار ريميرو في سنة ١٩١٦)، وقد جمع فيه نماذج من الترسل المرصع المسجوع يحتذيها الكُتّاب في رسائل المديح والتحميدات والرسائل الإخوانية التي توجه في التهنئة بالزواج (الصداقات والبيعات) أو بحلول الربيع أو بالنصر في الميدان أو «كتب الاستظهار على العداة والاستنجاد للعدات»، و «كتب الشكر على

الهدايا الواردات»، و«تقرير المودات»، و«التعازي في الحوادث النايبات»، و«الشفاعات» وما إلى ذلك.

والمعلومات التاريخية التي يوردها ابن الخطيب في كتبه صحيحة دقيقة في الغالب، وهي مرجعنا الأوثق في معرفة تاريخ مملكة غرناطة، ويكاد يكون آخر كاتب عظيم أنجبه الأندلس الإسلامي[١٣٣].

ف ٨٢ - عبد الرحمن بن خلدون (أول رمضان ٧٣٢/٢٧ مايو ١٣٣٢ - ٢٦ رمضان ٨٠٨/١٦ مارس ١٤٠٦)

وُلد ابن خلدون في تونس، ولكن أجداده أندلسيون. وقد درس على أساتذة أندلسيين، وأقام في الجزيرة زمنًا. ولن نسترسل في هذا المقام في سرد تفاصيل حياته السياسية الحافلة بالأحداث (مثله في ذلك مثل ابن الخطيب)، فقد وصل إلى تقلد المناصب الخطيرة في بلاط تونس، وولي منصب قاضي القضاة في القاهرة ست مرات، ونكتفي من هذه الأحداث بالإشارة إلى اثنين:

الأول: سفارته إلى الملك بدرو القاسي في إشبيلية سنة ٧٦٤/١٣٦٣ في صدد تعديل شروط صلح، وقد أعجب به(بدرو) وعرض عليه أن يقيم في قشتالة ووعده لقاء ذلك أن يرد عليه أملاك أسرته، ولكن ابن خلدون اعتذر من عدم القبول[١٣٤].

والثاني: استعماله الحيلة مع تيمور لنك للإفلات من يده أثناء حصار دمشق. ويصف المؤرخون ما فعله ابن خلدون في ذلك الظرف الحرج وصفًا مطولاً بديعًا، ويذكرون كيف تحدث إلى طاغية التتار حديثًا عذبًا بليغًا كله مديح وإطراء، فأعجب به وقرر أن يستبقيه في خدمته، فلم يرفض ابن خلدون وإنما استأذن تيمور في أن يمضي إلى القاهرة ليعود بكتبه وأهله، فأذن له فمضى وهو لا يكاد يصدق بالنجاة[١٣٥].

وقد كان ابن خلدون رجلاً حسن الهيئة معنيًا بمظهره، وكان سياسيًا عاقلاً مهذب الحاشية عارفًا بما ينبغي لحواشي السلاطين من أدب.

وابن خلدون مشهور بكتابه الجليل «العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» (طبع في بولاق سنة ١٨٦٧)، وينقسم إلى ثلاثة كتب: **الأول** هو «المقدمة»[١٣٦] الجليلة المشهورة (وقد ترجمها دي سلان إلى الفرنسية ونشرها في سنة ١٨٦٨)، ويوجز ابن خلدون الكلام عنها في فاتحتها بقوله : إنها تدور حول «العمران، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية، من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنايع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب».

والكتاب الثاني : من «العبر» يدور حول «أخبار العرب وأجيالهم وأولهم منذ بدأ الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم، مثل النبط والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والترك والروم».

أما الكتاب الثالث: فيتناول «أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم، وما كان بديار المغرب خاصة من الملك والدول». وقد نشر دس سلان هذا الجزء الثالث بعنوان «كتاب تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب»، لابن خلدون (مجلدان) وطبعه في الجزائر سنة ١٨٥١/١٢٦٧، ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم: «تاريخ البربر Histoire des Berberes» سنة ١٨٦٠، وأعيد نشره حديثًا بإشراف كازانوفا.

ويعالج ابن خلدون في المقدمة مسائل كثيرة متعددة، تتعلق بطبائع البشر وأسباب تغيرها واختلافها، وقيام الدول واختلاف الحضارات وما يوجب تقدمها أو تأخرها، وهذه الفصول تكوّن في مجموعها موسوعة تُعَالجُ الموضوعات فيها من وجهة نظر فلسفية؛ لأن ابن خلدون يرى أن فن التاريخ فرع من الحكمة (الفلسفة).

ويقول إنه: «في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقايع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق»[١٣٧].

ولا بد من دراسة طبائع البشر والعمران؛ حتى يستطيع الإنسان تفهم الحوادث ونقدها، واستقصاء عللها وأسبابها، ليقول: «.. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به على المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادَّة الصدق. وكثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سمينًا، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد».

ويرى ابن خلدون أن السبب في نشوء العمران البشري هو «ضعف الإنسان إذا انفرد بنفسه، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير مُوفية له بمادة حياته منه.

«ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه - وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً - فلا

يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة، من حداد ونجار وفاخوري. هَبْ أنه يأكل حبًّا من غير علاج، فهو أيضًا يحتاج في تحصيله حبًّا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن توفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القُدَر لجمع قدرة الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف».

«وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضًا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن الله سبحانه لما ركّب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها، جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان: فقدرة الفَرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة الإنسان، وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الأسد والفيل أضعاف من قدرته».

«ولما كان العدوان طبيعيًّا في الحيوان، جعل لكل واحد منهم عضوًا يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضًا من ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهيَّئة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصّل لها الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة، والتراس النائبة عن البيْشرات الجاسية، إلى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الأعضاء».

فالواحد من البشر لا تقاوم قُدرتُه قدرةَ واحد من الحيوانات العجم، سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرته أيضًا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة، لكثرتها وكثرة الصنائع والمواعين المعدة لها؛ فلا بد في ذلك

كله من التعاون عليه بأبناء جنسه».

«وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء، ولا تتم حياته، لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضًا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر. وإذا كان التعاون حصَّل له القوة للغذاء، والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه. فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله تعالى من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم. وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعًا لهذا العلم».

«وفي هذا الكلام نوعُ إثباتٍ للموضوع في فنه الذي هو موضوعٌ له، وهذا وإن لم يكن واجبًا على صاحب الفن - لما تقرر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علمٍ إثبات الموضوع في ذلك العلم - فليس أيضًا من الممنوعات عندهم، فيكون إثباته من التبرعات ... والله الموفق بفضله».

«ثم إن هذا الاجتماع - إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم - فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست آلة السلاح - التي جُعلت دافعةً لعدوان الحيوانات العجم عنهم - كافيةً في دفع العدوان عنهم؛ لأنها مرجوة لجميعهم، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض، ولا يكون من غيرهم، لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم، فيكون ذلك الوازع واحدًا منهم يكون له عليهم الغلبة السلطة واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. وهذا هو معنى المُلك».

«وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للإنسان طبيعةً ولا بد لهم [أي البشر] منها، وقد يوجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء - كما في النحل والجراد

- لما استُقريَ فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من أشخاصها متميز عنها في خلقه وجثمانه؛ إلا أن ذلك موجود لغير الإنسان بمقتضى الفطرة والهداية، لا بمقتضى الفكرة والسياسة: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]».

«وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان - حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة طبيعية للإنسان - فيقررون هذا البرهان إلى غايته، وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع، ثم يقولون بعد ذلك: «وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله، يأتي به واحد من البشر، وأنه لا بد أن يكون متميزًا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته، ليقع التسليم له والقبول منه؛ حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تزييف».

«وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه، إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه، أو بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادّته. فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب - فإنهم أكثر أهل العالم - ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار، فضلاً؛ عن الحياة وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب، بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع لهم ألبتة فإنه يمتنع. وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوّات، وأنه ليس بعقلي وإنما مدركه الشرع، كما هو مذهب السلف من الأمة. والله ولي التوفيق والهداية»(*)[١٢٨].

ويدرس ابن خلدون في مقدمته أثر الهواء والغذاء في طبائع البشر دراسة عميقة ويحللها تحليلاً طيبًا، ويدرس كذلك أدوار تاريخ الدول في أعمارها، وخصائص المدن الكبيرة، وعوائد الترف وما إلى ذلك. وفي المقدمة فصول عن الإدارة والزراعة

(*) أتى المؤلف هنا بإيجاز كلام ابن خلدون، فرأيت أن أورده بنصه.

والعمارة، والنجارة وصنائع النسج والطب، والغناء والكتب وعلوم القرآن، وعلوم العدد والرياضة والحساب، والجبر والهندسة والبصريات، والفلك والصفة والكيمياء، والمنطق والنحو والأدب.

وأسلوب ابن خلدون في المقدمة غير متعادل في الفصول كلها، وهو غني بالآراء والأفكار، وربما كرر ما يقوله في أكثر من موضع، مما يدل على حكمة وفهم وثيق. وله قدرة كبيرة على إصدار الأحكام العامة الجامعة، ونسوق إليك نموذجًا من كلامه في المقدمة؛ لترى كيف يعالج موضوع الفروق بين البدو والحضر. قال ابن خلدون بعد بيان هذه الفروق:

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم، فلا تهيجهم هيعة، ولا ينفر لهم صيد، فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح. وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزّلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم؛ حتى صار ذلك خلقًا يتنزل منزلة الطبيعة. «وأهل البدو - لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب - قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائمًا يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غرارًا في المجالس وعلى الراحلة وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنآبات والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء، مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم، قد صار لهم البأس خلقًا والشجاعة سجية، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استفزهم صارخ.

«وأهل الحضر - مهما خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر - عيالٌ

عليهم، لا يملكون معهم شيئًا من أمر أنفسهم، وذلك مشاهدٌ بالعيان؛ حتى في معرفة النواحي والجهات، وموارد المياه ومشارع السبل؛ وسبب ذلك ما شرحناه، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه. فالذي ألِفَه في الأحوال؛ حتى صار خلقًا وملكة وعادة، تَنَزَّلَ منزلة الطبيعة والجلبة؛ واعتبرْ ذلك في الآدميين تجده كثيرًا صحيحًا، والله يخلق ما يشاء»[١٣٩].

❁❁❁❁

(ب) التراجم وفهارس الكتاب

ابن عبد البر - الخشني - ابن الفرضي - الحجاري - ابن بشكوال ومصادره - الضبي - ابن الأبار ومصادره ابن فرحون - ابن خير - كتب المراجع الخاصة التي وضعها الخزرجي وابن عفيون وابن عيشون - القاضي عياض - ابن دحية .. إلخ.

كثرت عناية الناس في الأندلس بتصنيف معاجم الأعلام وفهارس الكتب، وذاعت بينهم ذيوعًا واسعًا. وهذه العناية وهذا الذيوع يدلان على علوّ مستوى المعارف واتساع آفاقها عند أهل الأندلس؛ حتى مسّت الضرورة إلى وضع المعاجم لطوائف الرجال أو لفروع العلوم. وهذه المعاجم كلها غنية بالمادة التاريخية، مما يدفع إلى الرجوع إليها ويُزيد حاجتنا إليها يومًا بعد يوم.

ولدينا مما ألف الأندلسيون في هذا العصر معاجم أعلام من صنوف شتى: منها معاجم لأعلام الفقهاء كتلك التي وضعها ابن عبد البر، أو لقضاة قرطبة «كتاريخ القضاة» للخشني.

وقد سبق هذا النوع من التراجم مجموعات التراجم العامة في الظهور، فصنفت بعد ذلك معاجم رجال جامعة، مثل مؤلفات ابن الفرضي والحَجاري وابن بشكوال والضبي وابن الأبار وابن فرحون.

ووضعت فهارس الكتب مثل فهرست ابن خير. وألفت كتب في تراجم صنوف معينة من الرجال، كالزهاد والمتصوفة والكتاب والمحدثين والفقهاء. ومنها ما ألف في رجال ناحية من النواحي، كهذا الذي وُضع عن علماء إلبيرة.

ف ٨٣ - ابن عبد البر والخشني

تشير أقدم مؤلفات الأندلسيين إلى مؤلفات ابن عمر يوسف بن عبد الله بن عبد

البر النّمري، مولى بني أمية (٣٦٨ - ٩٧٨/٤٦٣ - ١٠٧٠)[١٤٠]، وقد وضع كتابًا عن فقهاء قرطبة استعمله ابن الفرضي(*) والضبي. ويشير المصنفون كذلك إلى مؤلف آخر يسمى ابن عبد البر أيضًا، ولكن نسبته الكشكيناني - نسبة إلى كَشكينان، قرية في قنبانية قرطبة - (توفي ٩٥٢/٣٤١). وقد صنف كتابًا في «الفقهاء والقضاة بقرطبة والأندلس»، وكذلك ألّف أبو الأصبغ عيسى بن محمد المؤرخ (المتوفى سنة ١٠١٢/٤١٣) كتابًا في «تاريخ فقهاء إلبيرة»[١٤١].

ومن أعجب المؤرخين الذين انصرفوا إلى وضع المعاجم في طبقة معينة من الرجال أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الخشني، وهو قيرواني درس الشريعة في بلده، ثم وفد على الأندلس سنة ٣١١ أو ٩٢٣/٣١٢ أو ٩٢٤ حيث تخرج على قاسم بن أصبغ [ومحمد بن عبد الملك بن أيمن وغيرهما] في الفقه، «وكان حافظًا للفقه عالمًا بالفتيا حسن القياس»(*). ثم دخل في خدمة الحكم المستنصر فولاه المواريث في بجانة وألّف له كُتبًا كثيرة عن الفقهاء والمحدثين، وقد اشتهر اسمه بكتابه عن «تاريخ قضاة قرطبة»، من الفتح الإسلامي إلى سنة ٩٦٨/٣٥٧ (نشره ريبيرا وترجمه إلى الإسبانية في سنة ١٩١٤)[١٤٢]. وبعد أن توفي الحكم اضطر الخشني إلى بيع العطارة؛ ليعيش وتوفي في قرطبة في صفر ٣٦١/أغسطس ٩٧١ (ويقول الذهبي : إنه توفي سنة ٩٨١/٣٧١).

يضم هذا الكتاب من الفوائد ما يجعله من ألزم وأهم ما يُرجَع إليه لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس من أول الفتح إلى عصر الحكم المستنصر، ولا بد أنه

(*) . يبدو أن هنا بعض الخطأ، لأن ابن الفرضي أستاذ يوسف بن عبد البر. والسبب في ذلك ما ذكره ابن الفرضي في فاتحة تاريخ علماء الأندلس من أنه نقل من مؤلف لأحمد بن محمد بن عبد البر، وهو رجل آخر غير النمري، كما سيجيء.

(*) ابن الفرضي: علماء، رقم ١٣٩٨.

ألّفه بإيحاء من الحكم. وقد كتبه وتحت يده مادة طيبة «مدونة» مثل المصادر والوثائق المحفوظة في ديوان الخلافة وسجلات القضاة والأوراق الخاصة لبعض الأفراد. ولا بد كذلك أنه كان يرجع إلى طائفة من الكتب، إذ هو يشير إلى بعضها إشارات غير واضحة، وأهم من ذلك ما أخذه من الروايات والأخبار التي كان الناس يتناقلونها، «روايات كانت ذائعة على الألسن بين طبقات أهل قرطبة، منها ما كان يُحكى في قصر الخلافة وبيوت السروات، ومنها ما كان يتناقله الجمهور والقُصّاص في طرقات قرطبة وأرباضها وأحيائها التي يحتشد فيها أصاغر الناس» كما يقول ريبيرا، ولا بد أن هذه الأخبار كان مما تتناقله بيوت عرب الأندلس ذات النسب الصريح، وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدب والدين والعلماء الفقهاء مما كان يجري في حلقات درسهم، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السياسي والاجتماعي القائم، ومنها ما هو صدًى لما كان يتحدث به أولئك الذين يُولعون بنقد رجال الدين والأتقياء، ومنهم ما هو ترجمة عربية لروايات كان الناس يتناقلونها في لغتهم العجمية الدارجة أو صياغة جديدة لها. كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف المؤلف إليها من عنده إلا قليل.

ويرى خليان ريبيرا أن الخشنى «ليس بالمسرف في الدقة ولا بالشديد التحفظ في نقده لما يورد من الأخبار»، ولكن هذا المأخذ يمس الكتاب بوجه خاص في قسمه الأول فحسب؛ لأنه يقص فيه أحداثًا وقعت في العصور الأولى، وأخبارها يحيط بها الغموض، إذ لم يكن قد بقي على أيام الخشنى من ذكر أحداثها إلا نزر يسير جدًّا، ومن ثمَّ فلا غرابة أن توضع عنها أخبار مصدرها المالكيون وأصحاب المذاهب المنحرفة على السواء.

ومن الأخبار الموضوعة التي قبلها الخشنى ورواها تلك التي تتعلق بقضاة قرطبة الثلاثة الأُوَل، فقد وضعها أحمد بن فرج بن مُنتيل، ورمى من وراء وضعها إلى

أغراض سياسية، وكان ابن منتيل من أتباع محمد بن مَسَرَّة، أي أنه كان أندلسيًا من أهل البلاد متعصبًا لقومه، وكان متصوفًا يميل إلى المذاهب المنحرفة التي قال بها خصوم العرب من الأندلسيين (ولم يضعها رجل مشرقي كما قال دوزي). وقد صدَّق الخشني هذه الأخبار في سهولة؛ لأنه كان أجنبيًا عن البلاد. هذا، ونحن لا نجد ذكرًا لهؤلاء القضاة الثلاثة عند ابن القوطية أو في الأخبار المجموعة أو عند ابن عذارى وابن الفرضي[١٤٣].

ونحن لا نجد في تاريخ الخشني ذكرًا لتدخل قوى خارقة وعوامل غير طبيعية في مجرى الحوادث، ولا تسيطر عليه النوازع الدينية التي تستقر في الأوهام وتحيد بأصحابها عن الحكم المُنَزَّه عن الهوى، ولا نجد فيه كذلك أثرًا لعصبية سياسية ولا إغراقًا في مداهنة أهل الدولة؛ فلم يمنعه توقيره للحَكَم المستنصر من أن يسوق أخبارًا تُشين البيت الأموي بعض الشيء. وأسلوب الكتاب قليل الجمال من الناحية الأدبية، ولكنه عظيم الأهمية غني بالمتعة، لم يهتم بتأمل الأحداث وكيف تجري (والسر في قلة الجمال في أسلوب الكتاب هو أنه أخبار وأقاصيص مرسلة بعضها في إثر بعض).

وهو يعطينا صورة صادقة «لأمراء وحكام مثل عبد الرحمن الداخل العصبي العنيف، وهشام الرضي الرقيق الرحيم طيب القلب، والحكم الربضي النشيط الحازم ... وهو يصور لنا يحيى بن يحيى الفقيه المشاور في أمور القضاة متعاليًا بنفسه متجبرًا في سلطانه». وتعرض علينا صفحات هذا الكتاب صورًا لطبقات أهل الأندلس، من قرشيين ذوي نسب وحسب يطمحون إلى السلطان وينزعون إلى الشر والفوضى، وأُسَرٍ منحدرة عن أصول إسبانية، وناس من خدم القصر وغلمانه. وفيها نرى الصقالبة والنصارى وزهاد المسلمين وأهل قرطبة وما كان يشغلهم من أمور الدنيا والدين، وما كان يملأ قلوبهم من توقير للعلم، وما كانوا يتناقلونه من

أقاصيص ونوادر.

ويقول ريبيرا: «إن كتاب الخشني يضعنا في قلب قرطبة في عصر الإمارة، وأخباره مصوغة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتابٌ غيره من كتب التاريخ أو الأدب. وهو يحدثنا عن أشياء تافهة ويصور لنا مشاهد مبتذلة لا جلال فيها ولا رابط يربطها إلى غيرها، ولكن عدم التكلف هذا يحمل في أطوائه عنصرًا فنيًّا، وهذه الروايات التي ترسل على عواهنها تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية، مما لا يذكره أو يعني به غير هذا الكتاب». ومن أمثلة ذلك ما يعرفنا به من نماذج كلام الأندلسيين المسلمين من أهل قرطبة بعجميتهم.

ومن الطبيعي أن نجد في هذا الكتاب مادة قيمة لدراسة نظام القضاء في الأندلس، فهو يُلقي ضوءًا كافيًا على المسائل التي تتصل بتولية القضاة وعددهم وما كان يشترط فيهم من الصفات العقلية والخلقية، ويعرفنا بأجناس القضاة (عربًا أو مولدين أو بربرًا) ويحدثنا عن كفاياتهم وموازينهم في إصدار الأحكام، ويقدم لنا مادة طيبة عن إجراءات التقاضي ونظام المحكمة وجلال منصب القضاء، مع المقارنة بما كان عليه الحال في غير الأندلس من بلاد الإسلام.

وإليك مثالاً من أخبار ذلك «التاريخ» الذي توحي مادته بالكثير:

«[حدثنا أصبغ بن عيسى الشقاق]، قال: كنت مقبلاً يومًا مع القاضي أحمد بن بقي؛ حتى عنّ لنا سكران يمشي بين أيدينا، فجعل أحمد بن بقى يمسك من عنان دابته ويترفق في سيره، يرجو أن يغيب عنه السكران أو يحس به فيذهب مسرعًا. فكان كلما ترفق القاضي وقف السكران، حتى لم يكن بد من أن يقرب منه وينظر إليه. قال أصبغ: وكنت أعرف كراهية القاضي أن ينتشب في مثل هذا، ورقة قلبه أن يقرع أحدًا بسوط، فقلت في نفسي: ليت شعري كيف تصنع في مثل هذا يا

ابن بقي؟ فلما قربنا من السكران عطف عليّ القاضي فقال: «مسكين هذا الساير، أراه مخبول العقل!» قال: فقلت له: «بلية عظيمة!»، فجعل يستغفر الله ويسأل أن يأجر المصاب في عقله».

ف ٨٤ - ابن الفرضي - الحجاري

بيد أن النماذج الحقة لكتب التراجم إنما تلتمس عند من جوّدوا هذا الفن بعد ذلك، ومنهم أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي بن الفَرَضي (٣٥١ - ٤٠٣/٩٦٢ - ١٠١٢) من أهل قرطبة، وكان فقيهًا محدثًا خطيبًا جمّاعًا للكتب ؛ حتى صار له منها خزانة عامرة. وقد حج إلى مكة، ويبدو أنه تعلق بأستار الكعبة وسأل الله الشهادة وعندما عاد إلى الأندلس تقلد قضاء بلنسية، وقد أجاب الله دعاءه فاستشهد على يد البربر إذ اقتحموا عليه بيته عندما دخلوا قرطبة (في ٧ شوال ٤٠٣/٢٠ أبريل ١٠١٢) ونهبوها وقتلوا من وقع في يدهم من أهلها دون رحمة. وقد وُجد ابن الفرضي ميتًا في داره وقد تغير، ودفن دون غسل أو كفن أو صلاة بمقبرة مُؤَمَّرة بعد أيام من قتله.

وكان ابن الفرضي شاعرًا يقول أبياتًا تفيض بعاطفة دينية زهدية ظاهرة (انظر صلة ابن بشكوال، ص ٢٥٠)، وقد ضاع بعض ما ألفه من الكتب مثل «تاريخ شعراء الأندلس». وتذكر المراجع أنه «جمع كتابًا حفيلاً في أخبار شعراء الأندلس، وجمع المؤتلف والمختلف كتابًا حسنًا، وفي مشتبه النسبة كذلك، إلى غير ذلك من جمعه وتصنيفه». ولكن شهرته طارت بمعجم أعلامه المسمى «تاريخ علماء الأندلس» (المجلدان ٧، ٨ من المكتبة العربية الإسبانية Bibliotheca Arabico Hispana، وقام على نشره كوديرا في سنتي ١٨٩١ و١٨٩٢)، وهو أقدم معجم رجال عام بين أيدينا «بلغ فيه الغاية والنهاية من الحفل والإتقان». ويدل على حفله وإتقانه ما يذكره المؤلف نفسه من أنه سأل عن هذا التاريخ أو ذاك، أو قرأ شاهد قبر ليتحقق بنفسه

من شيء، بل إنه يقرر صراحة في كثير من المواضع أنه لم يجد شيئًا يستطيع أن يطمئن إليه[١٤٤].

وقد رجع ابن الفرضي إلى مؤلفين سابقين عليه نذكر منهم ابن الطحان وهو أبو الأصبغ عبد العزيز بن علي الإشبيلي (٣٠٤ - ٣٨٣/٩١٧ - ٩٩٤) من أهل إسْتِجَّة، وعلي بن معاذ بن سمعان بن موسى (٣٠٧ - ٣٨٩/ ٩١٩ - ٩٩٨) وقد وضع أحد تلاميذ ابن الفرضي وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن مهاب[١٤٥] (المتوفى سنة ٤٥٠/١٠٥٨) ذيلاً على «تاريخ» أستاذه اسمه «تعليق على تاريخ ابن الفرضي و استلحاق». وألف رُشيد الدين محمد بن إبراهيم الوطواط (المتوفى سنة ٧١٨/١٣١٨) رسالة سماها «درر ألغرر في شعراء الأندلس» وصل بها تاريخ شعراء الأندلس لابن الفرضي[١٤٦].

وفي هذا الطراز من معاجم الرجال ينبغي أن يُعَدَّ الكتاب الذي صنفه أبو عامر محمد بن يحيي بن محمد بن خليفة بن يَنَّوْ (٤٨٢ - ٥٤٧/١٠٨٩ - ١١٣٢) وعنوانه «كتاب في ملوك الأندلس والأعيان والشعراء بها»، ويقول عنه ابن الأبار في التكملة: «ومال إلى الآداب والعربية والعروض فحُمد في ذلك وبلغ الغاية من البلاغة في الكتاب والشعر، ولقى أبا العلاء بن زهر فلازمة مدة وأخذ عنه علم الطب».

وقد عرفنا أبا محمد عبد الله بن إبراهيم بن وَزْمُر الحجاري الصنهاجي (٤٩٩ - ٥٤٩/١١٠٦ - ١١٥٥) عن طريق لعلي بن سعيد وابن الخطيب والمقري، وقد ولد الحجاري في وادي الحجارة ونشأ فيها، ثم رحل عنها إلى شلب عندما سقطت في يد ألفونسو السادس. ثم قصد قلعة يحصب وأقام عند صاحبها عبد الملك بن سعيد، ثم انصرف إلى قصر ابن هود بروطة بعد أن أعذله [ابن سعيد] على التحول عنه فقال: «النفس بوّاقة، وما لي بغير التغرب طاقة»، فمضى يجوب الأقطار من جديد واستقر في «روطة» حيث أقام ردحًا من الزمن في ظل أميرها أحمد بن عماد الدولة بن هود.

قال علي بن سعيد: «لما قصد الحجاري روطة تحرك أميرها المنتصر أحمد بن عماد الدولة بن هود لغزو البشكنس فهزم جيشه، فكان الحجاري ممن أسر بتلك الوقعة فاستقر أسيرًا ببسْقاية، فبقي يحرك ابن هود بالأشعار ويحثه على تخليصه من الإسار فلم يُجد ذمامه ولا تحرك له اهتمامه». والصحيح أن الذين أسروه كانوا النبريين أهل نبره Navarra سنة ١١٢٨/٥٢٢، وظل في أسرهم؛ حتى فداه عبد الملك بن سعيد «فكان طليق آل سعيد».

وقد ألف الحجاري - إلى جانب بعض قصائده في المديح قالها فيمن أظلوه برعايتهم من الأمراء - كتابًا في التاريخ يقع في ستة أجزاء هو «المسهب في غرائب المغرب»[١٤٧]، يتحدث فيه عن فضائل أهل المغرب والأندلس، ويسوق فيه تراجم النابهين من أهله - من لدن الفتح إلى سنة ١١٣٥/٥٢٩ - مع نماذج من شعرهم وأطراف تاريخية وبعض معلومات جغرافية. وقد صاغ بنو سعيد هذا الكتاب في قالبه النهائي [كما سبق أن ذكرنا]، واسترشد به المقري في تأليف «نفح الطيب».

ف ٨٥ - ابن بشكوال ومصادره

وابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود، ١١٠٠/٤٩٤ - ٥٧٨/ ١١٨٢) وُلد في قرطبة [ولكن أصله من شُرُّيْن Sorrion بحوز بلنسية]، وكان تلميذًا لابن رشد ونفرًا آخر من الشيوخ والأساتذة، «وأسند عن شيوخه نيفًا وأربعمائة كتاب بين صغير وكبير، أخذ منها عن ابن عتاب وحده فوق المائة. لو عمِّر طويلاً فرحل الناس إليه وأخذوا عنه وانتفعوا به ورغبوا فيه]»، «وولى [ابن بشكوال] بإشبيلية قضاء بعض جهاتها لأبي بكر بن العربي، وعقد الشروط ببلده ثم اقتصر على إسماع العلم، وهذه الصناعة كانت بضاعته، والرواة عنه - لعلو الإسناد وسعة المسموع - لا يحصون كثرة»، كما يقول ابن الأبار في التكملة.

وقد ألف ابن بشكوال خمسين تأليفًا في أنواع مختلفة، أجلها كتاب «الصلة»،

وهو ذيل أكمل به تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وضمّنه سير طائفة من الأئمة والمحدثين والفقهاء وأهل الأدب من الأندلسيّين (نشره كوديرا في سنة ١٨٨٣). ويقول في حقه ابن الأبار: «إنه منتهى ما يصل إليه الواصل في معاجم التراجم»، وقال: «سلم له أكفاؤه بكفايته فيه، ولم ينازعه أهل صناعته الانفراد به ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستفادة منه، وقد حمله عنه أبو العباس بن العريف الزاهد ممن بعد في شيوخه ... فاتسعت فائدته وعظمت منفعته، وهو كتاب في فنه خطير القيمة ضروري الاستعمال، لا يستغني أهل الفقه عن التبليغ به والنظر فيه والاحتجاج منه».

هذا ومن المعروف أن ابن الأبار وضع ذيلاً لصلة ابن بشكوال-سماه «كتاب التكملة لكتاب الصلة» سار فيه على نهجه. وكتاب ابن بشكوال عظيم الفائدة لا يستغني عنه أهل الأدب، ولا يكاد إنسان يجد فيه خطأ[١٤٨].

لوقال ابن الأبار بصدد كلامه عن «الصلة»: «وأغلاطه الواقعة له فيها قليلة، وقد نبهت على أكثرها في كتابي هذا (التكملة)، واستدركت ما أغفل وتممت ما نقص، وجوّدت ما اقتضب مما وقع إليّ وترجح لدي، ولذلك ما أعدت هنا جملةً مَن ذُكر هنالك، مؤتسيًا بفعله في اسمه من كتاب ابن الفرضي».

ومن هذا الطراز من المؤلفات «المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن الأبار (نشره كوديرا وريبيرا في سنة ١٨٨٥)، وهو يضم تراجم أصحاب أبي علي الحسين بن محمد بن فيُّرة بن حيون بن سكرة الصدفي (١٠٥٢/٤٤٤ - ١١٢٢/٥١٦). لوقد كان القاضي أبو علي بن سكرة الصدفي السرقسطي - يعرف بابن الدرّاج - شيخًا جليلاً سمع منه ودرس عنه الكثيرون.

وقال ابن الأبار في فاتحة كتابه: «سَمَوْتُ إلى جمع أسمايهم وإيراد أبيات تنم عن مكانهم، ومما أمكن ذكره من أبنايهم مباهيًا بهم وبعصرهم، ومناغيًا أبا الفضل بن عياض في جمع شيوخه وحصرهم ... وهم (أي من ذكرهم في هذا المعجم) بين حاجب في الأخذ عنه راغب، وتلميذ على السماع منه راتب. ومن شيوخه من شذ، واعتقده في وقته الفذ، فكتب عن روايته، وخصه بحظ من عنايته، ذلك لاختصاصه بقرية هي ما هي، ورتبة في العدالة بلغت التناهي»، أي أن الكتاب يصور لنا مدرسة كاملة بأستاذها وشيوخه وتلاميذه ورواته والآخذين عنه.

وقد أورد ابن الأبار في بعض كتبه ذكرًا لمؤلفات أخرى لابن بشكوال مثل «أخبار قضاة قرطبة»، و«كتاب الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة»، وهو مختصر لكتاب «المنتخب من تاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطليطلة» لأبي جعفر بن مطاهر، وكتب أخرى كثيرة لا نعرف منها إلا أسماءها[١٤٩].

وكان ابن بشكوال موصوفًا «بصلاح الدخلة وسلامة الباطن، وصحة التواضع وصدق الصبر للراحلين إليه، ولين الجانب وطول الاحتمال في الكبرة للإسماع رجاء المثوبة» كما يقول ابن الأبار: وكل هذه الخلال الجميلة تتجلى في كتاباته.

وقد اعتمد ابن بشكوال في تصنيف الصلة على تاريخ الأندلس لأبي بكر حسن بن مفرج بن حماد بن الحسين المعافري المعروف بالقُبَّشي القرطبي (٣٤٨/٩٥٩ - ٤٣٠ /١٠٣٨) الذي يبدو أنه ألف كتابه على غرار مصنف آخر في نفس موضوع لابن عفيف (أبي عمر أحمد بن محمد ٣٤٨/٩٥٩ - ٤٢٠/١٠٢٨)[١٥٠] عنوانه: «الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء».

ونظر ابن بشكوال كذلك إلى معجم الرجال لأبي عمر بن مهدي (٣٩٤/١٠٠٣ - ٤٣٢/١٠٤٠)، وإلى كتابين آخرين في الأدب والتاريخ لابن زروقة[١٥١] (أبي عبد الله

محمد بن إبراهيم، المتوفى سنة ٤٣٥/١٠٤٣)، وكتاب آخر لابن عابد[١٥٢] (أبي عبد الله محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٤٣٩/١٠٤٧).

ورجع ابن بشكوال كذلك إلى كتاب «طبقات النحويين واللغويين» لابن خزرج الفقيه (أبي محمد عبد الله بن إسماعيل بن محمد ٤٠٧/١٠١٦ - ٤٧٨/١٠٨٥)[١٥٣]، وإلى تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها لأبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري بن مطاهر (أو المطاهر) المتوفى سنة ٤٨٩/١٠٩٥[١٥٤]، وإلى كتاب التاريخ الذي صنفه ابن مُدَيْر المتوفى سنة ٤٩٥/١١٠١[١٥٥]، ورجع كذلك إلى مصنف أبي طالب المرواني (عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ ٤٥٠/١٠٥٨ - ٥١٦/١١٢٢) المسمى «عيون الإمامة ونواظر السياسة» عن النابهين من أئمة الأندلس وحكامها.

وقد أكمل فوات «الصلة» مؤلفون آخرون، متبعين طريقة ابن بشكوال، هم: أبو بكر بن محمد بن عبد الله بن سفيان بن سيدالّة التجيبي (المتوفى سنة ٥٥٨/ ١١٦٢) - وهو من أهل قَونْكَة - بكتابه «مجموع في رجال الأندلس»، ويوسف بن أبي عبد الله بن سعيد بن أبي زيد اللّرّي (المتوفى سنة ٥٧٥/١١٧٩)، وهو من أهل ليرية ويسمى أيضًا أبو عمر بن عياد، يقول ابن الأبار في ترجمته في التكملة إنه: «كان قد شرع في تذييل كتاب ابن بشكوال»، وأنه «ألف كتابًا في طبقات الفقهاء من عصر ابن عبد البر إلى عصره».

ووضع ابنْ الزبير كذلك ذيلاً على صلة ابن بشكوال سماه «صلة الصلة» (نشره ليفي بروفنسال سنة ١٩٣٨)، ووصل كتاب ابن بشكوال أيضًا أبو القاسم بن حبيش (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف الأنصاري ٥٠٤/١١١١-٥٨٤/١١٨٨)، وهو شيخ الضبي وكان في المرية عندما استولى عليها ألفونسو السابع سنة ١١٤٧.

وقد انتفع ابن الأبار بكتاب اقتضب فيه ابن حبيش صلة ابن بشكوال، لوقال

في حقه: «وكان آخر أئمة المحدثين بالمغرب، والمسلم له في حفظ أغربة الحديث ولغات العرب وتواريخها ورجالها وأيامها؛ لم يكن أحد من أهل زمانه يجاريه في معرفة رجال الحديث وأخبارهم ومولدهم ووفياتهم»[١٥٦]

الضبي، (أبو جعفر أحمد بن يحيي بن أحمد بن عامرة، توفي سنة٥٩٩/١٢٠٢)[١٥٧]: يغلب أنه ولد في بليدة بَلّش Vèleza، ودرس في لورقة، وطاف بنواح كثيرة من الأندلس وإفريقية، وأقام زمنًا طويلاً في مرسية، وكان سريع الكتابة؛ حتى لقد نسخ موطأ مالك في ثمانية أيام. وكان محدثًا بارعًا حسن القراءة، ذا قدرة عظيمة في فهم المتون وشرحها وهو مشهور بكتابة «بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس» (نشره كوديرا وريبيرا سنة ١٨٨٥)، وهو ذيل على «جذوة المقتبس» للحميدي (ف ٦٦) وتصويب لما وقع فيها من أوهام.

وقد وقف الحميدي بتراجمه في الجذوة عند من توفوا سنة ٤٤٩/١٠٥٨، وفيها - أي في الجذوة - نقص وغلط كثير. وقد وصل الضبي بكتابه إلى عام ٥٩١/١١٩٥، وهو يضم تراجم - موجزة في الغالب - لمن وفد على الأندلس وأقام بها من المشارقة، ومعلوماته التي يوردها تتفق في بعض الأحيان مع ما يذكره ابن بشكوال، مما يدل على أن مادته التاريخية عظيمة يوثق فيها. وقد أوجز الضبي في فاتحة كتابه تاريخ الأندلس، وأهم ما في هذا الموجز ما يذكره عن القاضي ابن حمدين [محمد بن علي بن حمدين «الثائر بقرطبة والمدعو له بأكثر قواعد الأندلس»]، والمستنصر بن هود، اللذين حكما قرطبة في سنتي ٥٢٨ و ٥٣٩/١١٤٤ و ١١٤٥[١٥٨].

ف ٨٦ - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ٥٩٤/١١٩٨ - ٦٣٥/١٢٣٨)

ريما كان ابن الأبار المؤرخ أكبر مُصنّف لمعاجم الرجال أطلعه الأندلس، وأصله من بلنسية. وكان كاتبًا للأمراء الموحدين في الأندلس، ومنهم أبو زيد بن

السيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن بن علي، وقد رافقه عندما خرج إلى قلعة أيوب؛ إما لكي يرتد عن الإسلام ويدخل النصرانية؛ أو لكي يتحالف مع جاقمة الفاتح Jaime el Conquistador ملك برشلونة علي زَيَّان بن مردانيش الذي خلعه من إمارته. ومهما يكن من الأمر فقد ترك ابن الأبار أبا زيد ودخل في خدمة زَيَّان بن مردانيش، فجعله كتابًا له. وعندما حاصر النصارى بلنسية، أرسله ابن مردانيش إلى تونس ليستصرخ أبا زكريا بن حفصون لإنقاذ بلنسية، «فحضر مجلس السلطان، وأنشأ قصيدته على روي السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال والأقوات والكُسى، فوجدوهم في عُسرة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية»(*).

وبعد أن استغلب القطلانيون بلنسية في سنة ١٢٣٥/٦٣٣، هاجر ابن الأبار من الأندلس واستقر في تونس، وحظي عند أبي زكريا، «ورشحه لكَتْب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني - لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثر عنده من المغربي - فسخط ابن الأبار أنفةً من إيثار غيره عليه، وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه - لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه - وأن يُبقي موضع العلامة منه لكتابتها، فجاهر بالرد، ووضعها استبدادًا وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضبًا ورمى بالقلم وأنشد متمثلاً:

اطلب العز في لظى وذر الذ ل ولو كان في جنان الخلود

فنمى ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رقعة

(*) المقري: أزهار الرياض (القاهرة ١٩٤٢) جـ٣، ص ٢٠٥. والفقرات التي بين أقواس من ترجمة ابن الأبار في نفس المرجع وهي أغنى ما لدينا.

إليه عد فيها من عوتب من الكُتاب وأعتب وسماه «إعتاب الكتاب»، أي من شملهم عفو أمرائهم بعد غضب ومحنة[159].

وعفا عنه أبو زكريا وأطلق سراحه، فلما مات أبو زكريا وخلفه المستنصر رفع من شأنه وأحظاه واتخذه وزيرًا. بيد أن طموح ابن الأبار ونزوعه إلى الاستبداد برأيه أوقعاه في البلاء من جديد، وأضرت به سعايات خصومه - ومنهم الغساني - فكان في ذلك حتفه، إذ إنهم اشتركوا في التدبير على الأمير، ووُجد في أوراقه بيت من شعره يقول فيه:

طغى بتونس خَلْفٌ سموه ظُلمًا خليفه

فحنق عليه المستنصر «وأمر بامتحانه ثم قتله، فقتل طعنًا بالرماح وسط محرم سنة ثمان وخمسين، يعني وستمائة، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه وأحرقت معه»[*].

ومن مؤلفاته التاريخية الهامة كتاب «الحلة السِّيَراء»، وهو مجموع من تراجم الأمراء [والكبراء][*] الذين نظموا القريض، مع نماذج من ثمرات قرائحهم (مخطوط في مكتبة الإسكوريال، ونشر أجزاءً منه دوزي ومولر). وقد قال دوزي في حقه: «وإنني لأقرر دون أية مبالغة، وفي صراحة وبساطة، أنه كتاب عظيم القيمة. فهو يضم قدرًا لا يحصى من المعلومات عن شتى الموضوعات، ويصور تاريخ المغرب والأندلس على نحو يدعو إلى الإعجاب، وهو ينفرد بكثير مما يحدثنا به فلا نظفر به في موضع آخر»[160].

(*) المقري: أزهار، جـ٣، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(*) الزيادة هنا من كلام دوزي في القطعة التي نشرها من الحلة، والمؤلف هنا يأخذ عنه.

وقد خلف لنا ابن الأبار معجم تراجم آخر، هو «المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي بن سكرة»، وطبعه كوديرا في سنة ١٨٨٤؛ وكتاب «التكملة» لصلة ابن بشكوال (نشره كوديرا في سنتي ١٨٨٨ - ١٨٨٩، ونشر الأركون وجنذالذ بالنثيا قطعة أخرى منه في سنة ١٩١٥، ونشر ألفريد بيل ومحمد بن شنب قطعة ثالثة منه في سنة ١٩٢٠).

وإلى جانب «إعتاب الكتاب» الذي ذكرناه، وضع ابن الأبار كتابًا شبيهًا به هو «تحفة القادم» (مخطوط بمكتبة الإسكوريال ونشر في مجلة المشرق)[١٦١]، ألفه على نهج كتاب التاريخ الذي وضعه صفوان بن إدريس.

وتشير الكتب إلى مؤلفات أخرى له لا نجدها بين أيدينا، ولا نستغرب ضياعها، إذ إن كتبه ومصنفاته - وعددُها قرابة الخمسة والأربعين - أحرقت في نفس الموضع الذي امتحن وقتل فيه.

ورأيُ النقاد المحدثين جميعًا حسن في تآليف ابن الأبار، وهم يؤيدون دوزي في قوله: «إن ذلك المؤرخ الصادق كان يؤلف وتحت يده وثائق على أكبر جانب من الأهمية، وهو يمتاز بملكة نقادة صحيحة قوية، ويمتاز إلى جانب ذلك بعاطفة جياشة تذكرنا بفحولة العرب القدماء، وأسلوبهم في الحياة والإحساس، وهو شيء نادر بين معاصريه من المصنفين»[١٦٢].

وقد اعتمد ابن الأبار في تصنيف تواليفه على مؤلفين كثيرين ذكر بعضهم في كتاباته: منهم ابن حُبيش (٥١٨ - ٥٨٤/١١٢٥ - ١١٨٩) قاضي إستجة وكان محدثًا نابهًا (وقد ذكرناه)، وعبد الله بن سفيان التجيبي (المتوفى سنة ٥٨٩/١١٩٣)، وأبو عمر بن عياد الكري (٥٤٣ - ٦٠٢/١١٤٩ - ١٢٠٦) الذي سبقت الإشارة إليه، وينسب إليه معجم أعلام صنفه في شيوخ أبيه، وفيه غلط كثير، وأحمد بن هارون

النفزي (٥٤١ - ٦٠٨/١١٤٧ - ١٢١٢) من أهل شاطبة، وكان تلميذاً لابن حُبيش واشتهر بذاكرة عجيبة، وكان بارعًا في الحديث والفقه، وكانت حياته مضرب المثل في الزهد، وله كتاب في قضاة بلده وقضاة الأندلس، ومحمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي (٥٣٩ - ٦٠٩/١١٤٥ - ١٢١٣) من أهل لَتّت (عمل بمرسية، وسكن أبوه أوريولة)، وقد طاف بنواحي إفريقية والمشرق، ويقول ابن الأبار إنه: «جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفًا مفيدًا أكثر من الآثار والحكايات والأخبار، ووقع إليَّ بخطه في سنة ٦٤٠ [/١٢٤٢] في تونس، فكتبته على الانتخاب والاقتضاب، وضمّنت هذا الكتاب [التكملة] منه ما نسبته إليه»(*).

وأخذ ابن الأبار كذلك عن ابني حوط الله - أبي محمد وأبي سليمان - وكانا محدّثيْن، وأبي العباس أحمد بن عيشون (ف ٨٨)، وأبي القاسم محمد بن عامر بن فَرْقَد (٥٦٢ - ٦٢٦/١١٦٧ - ١٢٢٩) تلميذ ابن رشد وابن قزمان، وابن الطُيلسان (أبي القاسم قاسم بن محمد الأوشي، ٥٧٥ - ٦٤٢ أو ١١٧٩/٦٤٣ - ١٢٤٤ أو ١٢٤٥) وله تواليف في التاريخ وفي سير الصالحين والزهاد، والطُرَّازِ الغرناطي (أبي عبد الله محمد بن سعيد بن علي الأنصاري، ٥٥٨ - ٦٤٥/١١٦٢ - ١٢٧٧) الذي درس في المشرق، وقد قال ابن الأبار في ترجمته: «وله فهرسة مشتملة على أسماء شيوخه وما روي عنهم، وقعت إليّ بتونس وكتبت منها»(*)(١٦٣).

ف ٨٧ - ابن خير

ومن بين فهارس الكتب (التي كان الواحد منها يعرف بالفهرست أو البرنامج

(*) ابن الأبار: التكملة، رقم ٩١٩.

(*) ابن الأبار: التكملة، رقم ١٠٣٢.

وما إلى ذلك، وقد كثر تأليفها وتداولها بين الأندلسيين) نذكر فهرست أبي بكر بن خير (محمد بن خير بن عمر بن خليفة، ٥٠٢ - ٥٧٥/١١٠٨ - ١١٧٩). وهو إشبيلي، وكان واسع العلم بالحديث والنحو والأدب وأسماء الكتب، وكان أستاذ عصره. قال ابن الأبار: «وكان من الأكفاء في تقييد الآثار والعناية بتحصيل الرواية؛ بحيث يأخذ عن أصحابه الذين شاركهم في السماع مع شيوخه، وعددُ من سمع منه أو كتب منه نيف ومائة رجل، وقد احتوى على أسمائهم برنامج له ضخم في غاية الاحتفال والإفادة، لا يُعلَم لأحد من طبقته مثلُه؛ وقد كتبتُ منه في هذا التصنيف ما نسبتُه إليه. وقال جابر بن أحمد القرشي: كتب إليّ - يعني ابن خير - يخبرني أن فهرسته عشرة أجزاء، كل جزء منه ثلاثون ورقة»؛ وولى الصلاة بجامع قرطبة الأعظم. ولدينا من مؤلفاته الكتاب المسمى «بفهرسة ابن خير» (نشره كوديرا وريبيرا في سنة ١٨٩٥)، وهو يضم أسامي كل ما قرأه من الكتب في شتى العلوم، وأسماء شيوخه الذين درس عليهم وأجازوه، مرتَّبين حسب النواحي: إشبيلية وقرطبة والمرية ومالقة والجزيرة الخضراء وغيرها من البلاد. وأهميته تتجلى في ذلك العدد العظيم من الكتب التي ذكرها، والمؤلفين الذين أثبت أسماءهم، مما لا نجد في غيره من المراجع[١٦٤].

٨٨ - معاجم التراجم الخاصة القاضي عياض . ابن دحية

ومن معاجم الرجال الأندلسية ما يُقصَر على صنف واحد من الأعلام، ومن فهارس الكتب ما يختص بفرع معين من العلوم أو الآداب. ومن الطراز الأول ما ألّفه أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصّقر الأنصاري الخزرجي (٥٠٢ - ٥٥٩/ ١١٠٨ - ١١٦٣) من أهل المرية، وكان حافظًا محدثًا فقيهًا بارعًا في علوم الدين، وقد تولى قضاء غرناطة وإشبيلية، وله كتاب في سير زهاد الأندلس وصالحيها عنوانه: «أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار».

ومن أصحاب هذا الطراز من المعاجم أبو عمر محمد بن أبي بكر بن يوسف بن عَفيون الشاطبي (ويكنى أيضًا أبا عبد الله، ٥١٨ - ٥٨٤/١١٢٤ - ١١٨٨) من أهل شاطبة، وقد جمع شعر أبي الحسين بن جبير في ديوان، وصنف كتابًا في أخبار الزهاد والعباد[١٦٥]، وكتابًا آخر عن عجائب البحر[١٦٦].

وأبو القاسم بن الطيلسان (٥٧٥ - ٦٤٢ أو ٦٤٣/١١٧٩ - ١٢٤٤ أو ١٢٤٥)، وله كتب في المناقب مثل «زهر البساتين ونفحات الرياحين»، ورسائل أخرى عن الصالحين والزهاد من أهل الجزيرة مثل: «غرائب أخبار المُسْنِدين ومناقب آثار المهتدين»، و«تاريخ صلحاء الأندلس» ويسمى أيضًا «كتاب في أخبار الصالحين بالأندلس»، وله كتاب «أخبار القرطبيين والتبيين عن مناقب من عُرف بقرطبة من التابعين والعلماء الصالحين»؛ وأبو بكر محمد بن محمد بن الحكيم اللخمي (٦٦٥ - ٧٤٩/١٢٦٦ - ١٣٤٩) الذي جمع قطعًا من الشعر في كتابه المسمى «الفوائد المنتخبة والفرائد المستعذبة»، ضمنه معلومات أدبية وأطرافًا من سير المتصوفة في الأندلس، وأكمل التاريخ المسمى «بميزان العمل» لابن رشيق.

وابن جماعة الكناني (المتوفى في القاهرة حوالي سنة ٧٣٥/١٣٣٤) وله معجم في التراجم النبوية، وهي فرقة سُنية كان تساجل الرافضة[١٦٧].

وأبو عمرو محمد بن عيشون بن عمر بن صباح اللخمي (٥٣٨ - ٦١٤/١١٤٣ - ١٢١٧) من أهل سوسة، يقول في حقه ابن الأبار: «وكان يعقِد الشروط ويبصرها، ويجيد فك المعمى [منها]، ويقرض أبياتًا من الشعر، وله تقييد مفيد في الوفيات اعتمدت عليه في هذا الكتاب (التكملة)». وألف كذلك كتابًا في «تاريخ كتاب الأندلسيين»، وهو موضوع طرقه قبلة الأُقْشُنِين[١٦٨] - (أوغسطين) أبو عبد الله محمد بن موسى بن يزيد كما أورد اسمه ابن الفرضي، وعاصم بن محمد عند المقري - وسَكَن ابن سعيد[١٦٩] الإخباري (في اسمه خلاف) المتوفى سنة ٤٥٧/١٠٦٦.

أما القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (شعبان ٤٧٦/ ديسمبر ١٠٨٣ - جمادى الثانية ٥٤٤/ أكتوبر ١١٤٩) فموطن قومه بَسْطَة Baza، وقد ولد في سبته ودرس في قرطبة ؛ حيث طاب له العيش، كما ينم على ذلك قوله عند ارتحاله عنها:

رَعـى اللـه جيرانًـا بقرطـبة العـلى ... وَسَـقى رباهـا بالعهـاد السـواكبِ
وَحـيّا زَمانًـا بيـنهم قـد ألفـته ... طُلَـيق المحـيّا مسـتلان الجَوانـبِ
الإخوانـنا باللـه فـيها تذكّـروا ... مَعـاهدَ جـار أو مـودّة صـاحبِ
غَـدوت بهـم مـن بـرّهم وَاحـتفائهم ... كَـأنّيَ في أهلـي وَبـين أقـاربي(*)

وكان من أصحابه في الطلب أبو محمد بن عتّاب، وأبو الوليد بن رشد (الجد)، وكثيرون غيرهما. وقد امتاز عياض بعلم واسع بالتاريخ وأنساب العرب والنحو واللغة والصرف والحديث، وكانت بينه وبين ابن العريف: عالم المرية وصوفيها، صحبة ومكاتبات.

ومن بين مؤلفاته تاريخ لعلماء قرطبة يسمى «أخبار القرطبيين»، وتأليف في تاريخ بلده سبتة يسمى «العيون (أو الفنون) الستة في أخبار سبتة»، وله أيضًا «ترتب المدارك في معرفة أصحاب مالك»، وفيه أخبار عن الكثيرين من فقهاء المغرب والأندلس وعلمائهما (ف ١٢٠). وقد وضع المقري كتابًا حافلاً عن عياض، أشبه بموسوعة أدبية تاريخية أندلسية، هو «أزهار الرياض في أخبار عياض» (القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٣)(*)، كما وضع في سيرة النبي ﷺ كتابًا يجله المسلمون إجلالاً عظيمًا، هو «كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى»[١٧٠].

(*) المقري: نفح، جـ١، ص ٣٥٨. وقد اكتفى المؤلف بالإشارة إلى الأبيات، فاثبت هنا بنصها.

(*) عدلت عبارة المؤلف هنا بعض الشيء.

وكان أبو الخطاب بن دحية (ولد بين سنتي ٥٤٢ و٥٤٨/١١٤٧و١١٥٣ في بلنسية وتوفي سنة ١٢٣٥/٦٣٣ في القاهرة) قد تولى قضاء دانية، ثم «صُرف من ذلك لسيرة نُعيت عليه»، ثم رحل إلى مراكش وألّم ببجاية وتونس ومكة والشام والعراق، ووصل إلى فارس وخراسان، ثم نزل إرْبل، واستقر به المطاف آخر الأمر في مصر؛ حيث عهد إليه السلطان العادل الأيوبي في تأديب ولده الكامل، وأنشأ له «مدرسة الحديث الكاملية» ليقرئ الحديث فيها. وقد كان ابن دحية واحدًا من أولئك العلماء الذين نشروا علم أهل الأندلس في المشرق فردوا بذلك دَين الأندلس للمشارقة في هذه الناحية.

ألف ابن دحية «كتاب النبراس في ذكر خلفاء بني العباس» (نشر في بغداد سنة ١٩٤٩)، وهو من الكتب التي اعتمد عليها ابن خلكان، ووضع مصنفين في الحديث، وكتابًا عن شعراء الأندلس والمغرب هو: «المطرب من أشعار أهل المغرب» (مخطوط بالمتحف البريطاني)، يروي فيه الأخبار والأشعار دون منهج كما تواردت على خاطره، ليقول: «لم أقصد جمع ذلك على الترتيب، ولا سلكت فيه مسلكي المعهود في التبويب والتهذيب، بل استرسلت فيه مع الخاطر على ما يجود به ويسمح، ويعن له ويسمح، فالناظر فيه يسرح في بساتين ويمرح في ميادين، ويخرج من فن إلى فنون، والحديث ذو شجون»[*]؛ إذ إنه كان قد خلف معظم كتبه في المغرب؛ وسطا عليه لصوص البحر في الطريق ونهبوا ما بقي له منها، وعلى رغم ذلك كله فإن كتابه حافل بالفوائد، (مثال ذلك أخبار سفارة يحيى الغزال إلى بلاد النورمانيين). وهذا وله كذلك كتاب طريف عنوانه: «كتاب الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفين»[١٧١].

(*) المطرب، ورقة ٤ ب من المخطوط.

وانصرف كذلك إلى التأليف في طبقات المحدثين أبو محمد قاسم بن محمد بن يوسف علم الدين البرزالي (٦٦٥ - ٧٣٨/١٢٦٦ - ١٣٣٧) وهو من إشبيلية، وقد اشتغل بتدريس الحديث في إحدى مدارس دمشق، وقد وصل كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر بقطعة بلغ بها إلى حوادث سنة ٧٣٨/١٣٣٧. وله «معجم» في شيوخه.

وجدير بالذكر كذلك أبو القاسم محمد بن عبد الواحد بن إبراهيم ابن مُفَرِّج المعروف بـالمَلاّحي (٥٤٨ - ٦١٨/١١٥٤ - ١٢٢٢)، صاحب «تاريخ علماء إلبيرة»، وتاريخ آخر لعلماء غرناطة، وكتاب في أنساب أمم العرب والعجم سماه «بالشجرة»[١٧٣].

❁❁❁❁

(جـ) تاريخ الأدب

الطلائع الأولى لهذا الفن: عبد الله بن مغيث، ابن فرج الجياني ومن إليهما، ابن بسام، ابن خاقان، الشقندي، ابن الخطيب، المقري

أزهر التأليف في تاريخ الأدب في الأندلس إزهارًا عظيمًا مردُّه إلى ما طُبع عليه الأندلسيون من ولع بالشعر.

وتُحَدثنا المراجع عن ظهور مؤلفات خاصة بالشعراء وسيرهم في أوائل القرن (الرابع الهجري) العاشر الميلادي، ومثال ذلك ما كتبه عثمان بن ربيع المرواني وعبد الله بن مغيث وابن فرج الجياني من مؤلفات ضاع معظمها، ولم يبق لنا من مادتها إلا أطراف نجدها في كتابات ابن خاقان وابن بسام وابن حزم والشقندي وابن الخطيب والمقري.

ف ٨٩ - طلائع المؤلفات في تاريخ الأدب

ومن أقدم النقاد الذين عنوا بالتصنيف في تاريخ الأدب، عثمان بن ربيعة الأندلسي من أهل قرطبة (المتوفى حوالي سنة ٣١٠/٩٢٢)، فقد وضع مصنفًا في «طبقات الشعراء بالأندلس» ولدينا منه نسخة مخطوطة في فاس[١٧٣]، وابن أبي الفتح (قاسم بن نصير بن رقاص بن عيشون من أهل شذونة، يكنى أبا محمد)، «وكان فقيهًا حافظًا للرأي ونحويًا لغويًا وشاعرًا متقدمًا، وكان خطيب أهل قَلسانة وصاحب صلاتهم، وكان في الشعر سابقًا لا يُشق غباره ولا يقرب ميدانه، وتخلى عن الدنيا في آخر عمره وصار في هيئة الأبدال، وأكثر شعره في الزهد وذم الدنيا وفي شواهد الحكم والتذكير والوعظ، وله ديوان شعر كتبتُ بعضه بشُذونة وقد كتبتُ له أشعارًا من كتابه المؤلف في الشعراء من الفقهاء بالأندلس»[*]، واشتغل

(*) ابن الفرضي: علماء، رقم ١٠٦٧.

إلى جانب ذلك بتصنيف «ديوان» من شعر فقهاء الأندلس.

ومن أوائل مؤرخي الأدب الأندلسيين كذلك محمد بن هشام بن عبد العزيز بن سعيد الخير المرواني (المتوفى سنة ٢٤٠/٩٥١)، وكان خطيبًا شاعرًا، وقد عرض عليه الخليفة الناصر أن يكون مؤدبًا لأولاده فأبى من ذلك، وكان من أصحاب الحكم المستصر قبل أن يلي الخلافة، وله كتاب في «أخبار الشعراء بالأندلس»[١٧٤].

ومنهم عبد الله بن محمد بن مغيث بن عبد الله الأنصاري (المتوفى سنة ٣٥٢/ ٩٦٣) من أهل قرطبة، وهو والد قاضي الجماعة أبي الوليد يونس بن عبد الله بن الصفار، وكان عظيم المكانة لدى الحكم المستنصر. وعندما خرج الحكم للغزو في سنة ٣٥٢/٩٦٣ اعتذر ابن المغيث من عدم الخروج معه لاعتلال صحته، فأجابه الحكم إلى ما طلب من البقاء في قرطبة، وشرط عليه أن يصنف كتابًا في «شعر الخلفاء من بني أمية» على نهج كتاب «الأوراق» للصولي في شعر بني العباس، وأذن له في أن يقيم في قصر الخلافة في ناحية مطلة على النهر، فأنجز الكتاب ريثما فرغ الحكم من الغزاة وتلقاه به في طليطلة، وتوفي في نفس العام.

وعني بهذا الفن من التأليف كذلك مُطَرِّف بن عيسى بن لبيب بن محمد بن مطرف الغساني (المتوفى سنة ٣٧٧/٩٨٧)، من أهل إلبيرة وسكن غرناطة، وكان صاحب رحلات وأسفار وحج إلى مكة، وألف للخليفة الحكم المستنصر كتابًا أسماه «المعارف في أخبار كورة إلبيرة وأهلها ووفوا يدها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها»، وهو كتاب ممتع جدًا - كما يقول ابن بشكوال في الصلة.

ابن فرج الجياني

أودعه الحكم المستنصر السجن لأمر نقمه عليه، فمضى ينظم الشعر في محنته ؛ حتى مات في الحبس سنة ٣٥٩/٩٧٠. وقد سبق ابنَ بسام صحاب «الذخيرة»

بكتابه «الحدائق» في التأليف في هذا الفن؛ وقد ضاع كتاب الحدائق، وكان يضم أخبار معاصريه من الشعراء ؛ حتى القرن الرابع الهجري. لوقد قال الحميدي عن كتاب الحقائق: «ألفه للحكم المستنصر، وعارض فيه كتاب «الزهرة» لأبي بكر محمد بن داود بن علي الأصبهاني، إلا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب، في كل باب مائة بيت، وأبو عمر أورد مائتي باب، في كل باب مائتي بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئًا. قال لنا أبو بكر محمد بن عليّ بن أحمد: وأحسنَ الاختيار ما شاء، وأجاد فبلغ الغاية، فأتى الكتاب فردًا في معناه».

وألف في ذلك الباب نفر أقل شهرة ممن ذكرناهم، مثل علي بن عبد المحسن الفُتوحي (المتوفى سنة ٣٨٤/٩٩٤)، وهو إشبيلي وضع مجموعًا من تراجم الشعراء واللغويين وأهل السياسة (يوجد مخطوطًا بمكتبة الإسكوريال) عنوانه: «المستجاد من فعلات الأجواد»؛ وأبى بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة بن أفلح الأنصاري الخزرجي بن ماء السماء (المتوفى سنة ٤١٩/١٠٣١)، أخذ عن أبي بكر الزبيدي وكان شاعرًا مجيدًا، ليصفه ابن بسام بأنه كان في عصره شيخ الصناعة وإمام الجماعة، وله كتاب في «أخبار شعراء الأندلس» أثنى عليه ابن حزم، وأبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب الإشبيلي (المتوفى حوالي سنة ٤٤٠/ ١٠٤٨)، وقد قال ابن بسام: إن له كتابًا جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة، وهو صاحب كتاب «البديع في وصف الربيع» (نشره هنري بيريس في باريس سنة ١٩٤٠).

ف ٩٠ أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (توفي حوالي سنة ٥٤١ -٥٤٢/١١٤٧ - ١١٤٨)

من أهل شنترين في البرتغال الحالية، نشأ في بيت محتد وحسب، ورحل إلى أشبونة سنة ٤٧٧/١٠٨٤؛ ووفد على قرطبة للمرة الأولى سنة ٤٩٤/١١٠٠ مخلفًا وراءه ما ملكت يده في بلده الذي انتهبه النصارى، وقد وصف خروجه من بلده مقهورًا بقوله في فاتحة «الذخيرة»:

«وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلون الحرباء، لانتباذي من شَنَتَرِين قاصية الغرب، مفلول الغرب، مروع السرب، بعد أن استُفد الطريف والتِّلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بتواتر طوائف الروم علينا في عقر ذلك الإقليم. وقد كنا غنينا هنالك بكرم الانتساب، عن سوء الاكتساب، واجتزأنا بمذخور العتاد، عن التقلب في البلاد، إلى أن نثر علينا الروم ذلك النظام، ولو تُرك القطا ليلاً لنام. وحين اشتد الهول هنالك، اقتحمت بمن معي المسالك، على مَهامِه تكذب فيها العين الأذن، وتُستَشعر فيها المحن:

مهامه لم تصحب بها الذئبَ نفسُه ولا حملتْ فيها الغرابَ قوادمُهُ

حتى خلصتُ خلوص الزِّبْرِقان من سراره، وفزت فوز القِدْح عند قِماره، فوصلت حِمص بنفس قد تقطعت شعاعًا، وذهب أكثرها التياعًا، وليتني عشت منها بالذي فَضَلا! فتغرَّبتُ بها سنوات أتبوأ منها ظلَّ الغمامة، وأعيى بالتحول عنها عِيَّ الحمامة، ولا أُنسَ إلا الانفراد؛ ولا تَبَلُّغَ إلا بفضله الزاد والأدب بها أقل من الوفاء، حامله أضيعُ من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد مالُهُ، وأسوأ كل بلد جُهَّالُه، حَسْبُ المرء أن يَسْلم وَفْرُه، وإن تُلِم قَدْره، وأن تكثر فضته وذهبه، وإن قل دينه وحسبه».

وقد صنف ابن بسَّام كتابه المشهور في سنة ١١٠٩/٥٠٢ في إشبيلية؛ حيث استقر وعاش من قلمه، ومضى يدبِّج التراجم ويكيل المديح لمن يجزيه عنه بالمال، وكان ذلك أمرًا شائعًا صنعه ابن خاقان أيضًا. ويرى دوزي أن ما كان ابن بسَّام يصيبه من المال من أولئك السروات يشبه الأتعاب التي يتقاضاها المؤلفون اليوم من الناشرين.

وقد صنَّف ابن بسَّام كتبًا كثيرة لم يُبقِ الدهر على بعضها، مثل «كتاب الاعتماد على ما صحَّ من أشعار المعتمد بن عبَّاد»، ومجموعًا من شعر عبد الجليل بن

وهبون عنوانه «كتاب الإكليل المشتمل على ذكر عبد الجليل»، ومجموعًا من رسائل ابن طاهر - صاحب مرسية - هو «سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر»، وديوان شعر الوزير أبي بكر بن عمار صاحب المعتمد: «تحية الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار»، ومجموعًا من شعر الهجاء الذي قاله ابن بسَّام نفسه مما لم يُذعه في الناس.

بيد أن الكتاب الذي أذاع اسم ابن بسَّام ووصل إلينا هو «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وقد قسمه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: (مخطوط في المكتبة الأهلية في باريس ونُشر في مجلدين في القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٢)، «لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس».

والقسم الثاني: (مخطوط بمكتبة أكسفورد ومكتبة المجمع التاريخي في مدريد)، «لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وذكر حضرة إشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي».

والقسم الثالث: (مخطوط بمكتبتيْ جوتا والمجمع التاريخي الإسباني بمدريد)، «لأهل الجانب الشرقي من الأندلس، ومن نُجَمَ من كواكب العصر في أفق ذلك الثغر الأعلى إلى منتهى كلمة الإسلام هنالك».

والقسم الرابع: (مخطوط يملكه الأستاذ ليفي بروفنسال ونشر الجزء الأول منه في القاهرة سنة ١٩٤٥)، «أفردته لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدة المؤرَّخة من أديب وشاعر، وأوى إلَى ظلّها من كاتب ماهر، واتسع فيها مجاله وحفظت في ملوكها أقواله، ووصلتُ بهم ذكرَ طائفةٍ من مشهوري أهل تلك الآفاق، ممن نجم في عصرنا بإفريقية والشام والعراق»، كما يقول ابن بسَّام.

ولم يرتب ابن بسَّام تراجمه على حسب السنين إلا في الجزء الخاص ببطليوس وما يصاقبها، وإنما رتبها حسب مكانة المترجَم في رأي ابن بسَّام. وهو يبدأ عادةً بترجمة العَلَم المراد مرسلةً في نثر بديع مسجوع، ثم يذكر مؤلفات من يترجم له ويطري مواهبه الأدبية، ثم يورد مقتطفات من شعره ونثره.

ويذكر ابن بسَّام في فاتحة كتابه دافعه إلى تصنيف الذخيرة، وهو الرغبة في التعريف بأهل الأدب الأندلسيين، إذ إنه رأى الناس يغمطون قدرهم، فيقول: «وما زال في أفقنا هذا الأندلسيِّ القصيِّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنَّين، وأئمة النوعين، قوم هم ما هم طيب مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقَّق، لعب الدجى بجفون المزرَّق، وحَدَوا بفنون السحر المنمَّق، حُداءَ الأعشى ببنات المحلَّق، فصبوا على قوالب النجوم، غرائبَ المنثور والمنظوم، وباهَوْا غرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل: نثر لو رآه البديعُ لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاَّه حكمَه، ونظْمٌ لو سمعه كُثَيِّر ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح. إلا أنَّ أهل هذا الأفق أبَوْا إلا متابعة أهل المشرق: يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غُرابٌ، أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لَجَثَوْا على هذا صنمًا، وتلَوْا ذلك كتابًا محكمًا؛ وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، لا .... (كلمة ساقطة من الأصل) بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد. فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهْري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري؛ غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بُدُوره أهلة، وتصبح بحاره نِمادًا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفُور علمائه، وقديمًا ضيعوا العلم وأهله، ويا رُب محسن مات إحسانه قبله! وليت شعري... من قصر العلم على بعض الزمان، وخصَّ أهل المشرق بالإحسان؟!».

ثمَّ يذكر بعد ذلك السبب الذي جعله يترك ذكر ما قال الأندلسيون من الشعر في عصور بني أمية والمنصور، وهو أنه لم يشأ أن يعيد ما أورده ابن فرج الجياني في «كتاب الحدائق» الذي ضاهى به «كتاب الزهرة» لابن داود الأصفهاني، ولهذا قصر كتابه على أهل زمانه ممن رآه بنفسه أو عرفه معاصروه، ليقول:

«فأضربت أنا عما ألّف، ولم أعرض لشيء مما صنّف. ولا تعديت أهل عصري، ممن شاهدته بُعمري، أو لحقه بعض أهل دهري؛ إذ كل مردَّدٍ ثقيلٌ، وكل متكرر مملول، وقد مجت الأسماع: «يا دار مية بالعلياء فالسند»، و ملّت الطباع : «لخولة أطلال ببرقة ثهمد»، ومحت : «قفا نبك» في يد المتعلمين ورجعت على ابن حجر بلائمة المتكلفين؛ فأما «أمن أم أوفى»، فعلى آثار من ذهب العفا. أما آن أن يصم صداها، ويُسأم مداها؟ وكم من نكته أغفلتها الخطباء، ورب متردم غادرته الشعراء؛ والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز عليَّ الفضل أن ينكر، تقدم به الزمان أو تأخر. ولحا الله قولهم: الفضل للمتقدم! فكم دفن من إحسان، وأخمل من فلان! ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير».

ثم يعتذر عما عساه أن يكون قد أغفله أو سها عن ذكره في كتابه بالظروف الخاصة التي ألّفه فيها، ثمَّ إن الأوراق والكتب التي كان يعتمد عليها كانت حافلة بالأخطاء مما كان يكلفه عناءً بالغًا في البحث والتنقيب، وهو يقول:

«ولعل بعض من يتصفحه سيقول: إني أغفلت كثيرًا وذكرت خاملاً وتركت مشهورًا. وعلى رِسْله، فإنما جمعته بين صعب قد ذل، وغرب قد فُلَّ، ونشاط قد قلَّ، وشباب ودَّع فاستقلَّ، من تفاريق كالقرون الخالية، وتعاليق كالأطلال البالية، بخط جهال كخطوط الراح، أو مدارج النمل بين مهاب الرياح، ضبطهم تصحيف، ووضعهم تبديل وتحريف، أيْأس الناس منها طالبها، وأشدهم استرابة بها كاتبها،

ففتحت أنا أقفالها، وفضضت قيودها وأغلالها، فأضحت غايات تبيين وبيان، ووضحت آيات حسن وإحسان».

لويقول في موضع آخر:

«ولَكِنِّي بما أقدمت عليه، وتصديت إليه كالنسيم دل على الصبح، والسهم ناب عن الرمح، ولا أقول: إني أغربت؛ لكن ربما بينت وأعربت، ولا أدعى أني اخترعت؛ وَلَكِنِّي لعلي قد أحسنت حيث اتبعت، وأتقنت ما جمعت وتألفت عَنَن الشارد، وأغنيت عن الغائب بالشاهد، وتغلغلت بقارئه بين النظم والنثر، تغلغل الماء أثناء النور والزهر، وانتقلت من الجد إلى الهزل، انتقال الضحيان من الشمس إلى الظل، واستراحة البَهِير من الحزن إلى السهل، وتخللت ما ضممته من الرسائل والأشعار، بما اتصلت به أو قيلت فيه من الوقائع والأخبار، واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة فشرحت بعض محنها، وجلوت وجوه فتنها، ولخصت القول بين قبيحها وحسنها، وأحصيت عِلل استيلاء طوائف الروم على الإقليم، وألمعت بالأسباب التي دعت ملوكها إلى خلعهم، واجتثاث أصلهم وفرعهم، وعبَّرت عن أكثر ذلك، بلفظ يتتبع الهم بين الجوانح، ويحل العصم سهل الأباطح، وعولْتُ في ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيان، فأوردت فصوله، ونقلت جمله وتفاصيله، فإذا أعوزني كلامه وعزَّني سرده ونظامه، عكفت على طللي البائد، وضربت في حديدي البارد، على حفظ قد تشعب وحظ من الدنيا قد ذهب»].

وقد وضع ابن مماتي (٤٥١-٦٠٥ / ١١٤٧-١٢٠٩) مختصرًا لذخيرة ابن بسَّام.

وقد كانت الذخيرة - قبل البدء في نشرها بزمن طويل - من المراجع التي انتفع بها دوزي انتفاعًا عظيمًا في بحوثه الكثيرة عن الأندلس وأهله، كما يرى بوضوح

في كتابه المسمى «أقوال كتاب العرب في بني عباد»(*) (١٧٥) وفي «أبحاثه» المعروفة، ومن هذا الكتاب الأخير نقتطف القطعة التي نوردها فيما يلي (نقلاً عن الطبعة الثانية «للأبحاث» جزء٢ ص٢٢ وما يليها) وهي تدور حول استغلاب السيِّد القمبيطور لبلنسية:

«قال ابن بسَّام: وتم للطاغية رذريق مرادُه الذميم من دخول بلنسية سنة ٤٨٨، على وجه من وجوه غدره، وبعد إذعان [ابن جحَّاف] القاضي المذكور لسطوة كبره، ودخوله طائعاً في أمره على وسائل اتخذها وعُهود ومواثيق بزعمه أخذها، لم يمتد لها أمد، ولا كثُر لأيامها عدد. وبقي مُد يده يضجر من صحبته، ويلتمس السبيل إلى نكبته، حتى أمكنته [الفرصة]: زعموا بسبب ذخيرة نفيسة من ذخائر ابن ذي النون، وكان رذريق لأول دخوله سأله عنها، واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها، فاقسم بالله جهد أيمانه، غافلاً عما في الغيب من بلائه وامتحانه. وجعل رذريق بينه وبين القاضي المذكور عهدًا أحضره الطائفتين، وأشهد عليه أعلام الملتين، إن هو انتهى بَعدُ إليها وعثر عنده عليها، ليستحلن إخفار ذممه وسفك دمه فلم ينشب رذريق أن ظهر على الذخيرة المذكورة لديه، لما كان قد حُمَّ من إجراء محنته على يديه، ولعلها كانت منه حيلة أدارها، وداهية من دواهيه

(*) وعنوانه الجزء الأول منه كاملاً:

Historia Abbadidarum. Praemissis scriptorum arabum de ea dynastia locis nunc primus editis. (Lugduni Batavorum, 1846)

= تاريخ بني عباد. أهم ما كتبه كتَّاب العرب عن هذه الأسرة [مما] لم يسبق نشره، لايدن ١٨٤٦. وعنوان المجلدين الثاني والثالث يختلف بعض الشيء، وهو المستعمل عادة عند العلماء في الإشارة إلى هذا الكتاب وهو:

Scriptorum arabum loci de Abbadidis nunc primum editi. (Lugduni Batavoruin,1852).

= أقوال كتَّاب العرب في بني عبَّاد [مما] لم يسبق نشره قَبْلاً.

سددها وأثارها، فأنحى على أمواله بالنهاب، وعليه وعلى أهله بأنواع العذاب، حتى بلغ جهده ويئس مما عنده، فأضرم له نارًا أتلفت دماءه، وحرقت أشلاءه.

«حدثني من رآه وهو في ذلك المقام، وقد حُفر له حفير إلى رِفْغَيْه، وأُضرمت النار حواليه، وهو يضم ما بَعُد من الحطب بيديه؛ ليكون أسرع لذهابه وأقصر لمدة عذابه؛ كتبها الله له في صحيفة حسناته، ومحا بها سالف سيئاته، وكفانا بعدُ أليم نقماته، ويسَّرنا إلى ما يزلف إلى مرضاته».

«وهمَّ يومئذ الطاغية لذريق بتحريق زوجته وبناته، فكلمه فيهن بعض طغاته، فبعد لأي ما لفتَه عن رأيه، وتخلَّصَهن من أيدي نكدائه».

«وأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذٍ نارًا، وجلَّل سائر طبقاتها حزنًا وعارًا، وغلظ أمر ذلك الطاغية حتى فدح التهائم والنجود، وأخاف القريب والبعيد».

«حدثني من سمعه يقول: وقد قوي طمعه ولَجّ به جشعه: علي رذريق فتحت هذه الجزيرة، ورذريق يستقذها! كلمة ملأت الصدور، وخيَّلت وقوع المخاوف والمحذور».

«وكان هذا البائقة وقته - في ذرى شهامته، واجتماع حزامته، وتناهي صرامته - آية من آيات ربه، إلى أن رماه سريعًا بحتفه، وأماته ببلنسية حتف أنفه».

«وكان - لعنه الله - منصور العلم، مظفرًا على طوائف العجم. لقي زعماءهم مرارًا - كفرسية المنبوذ بالفم المعوج، ورئيس الإفرنج، وابن ردمير - ففل حد جنودهم، وقتل بعدده اليسير كثير عددهم».

«وكان - زعموا - تُدْرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفَّه الطرب، وطفق يعجب منها ويتعجب»[١٧٦].

وقد عقد هذا المستشرق الهولندي - «راينهارت بيتر - آن دوزي» - مقارنة بين «ذخيرة» ابن بسَّام و «قلائد» ابن خاقان التي كتبت بعدها بنحو عشرين سنة، قال فيها: «إذا نحن أقمنا مقارنتنا على الأساس الصحيح للنقد، لم نجد أي مجال ممكن للمقارنة بين الكتابيْن؛ فإن كتاب ابن بسَّام يتحدث عن نفسه بما تضمه مادته من فائدة حقيقية. فهو يحوي - إلى جانب القطع القيمة التي نقلها من كتابات ابن حيان - قدرًا عظيمًا من المعلومات الجديدة الهامة عن تاريخ الحضارة والأدب الأندلسييْن، في حين أن كتاب ابن خاقان أقل نفعًا في هذا الباب، وإن كان يحوي فوائد كثيرة، على عكس ما يذهب إليه بعض الباحثين».

هذا وكلا الكتابين جليل القدر من حيث الأسلوب، فهما مصوغان في نثر شاعري جميل؛ وإذا نحن قدرناهما بميزان البلاغة والذوق الأدبي عند العرب، - ولهم كُتبًا - فإن ابن خاقان يحوز قصب السبق في رأي دوزي. وهو يقول في هذا المعنى: «ذلك أن ابن خاقان لا تعوزه بأي حال الأخيلة البعيدة المطارح، أو الصياغة اللفظية الفنية، أو العبارة الجزلة الرنانة ذات الإيقاع الجميل.

أما ابن بسَّام فنحن نلحظ أنه يعاني عسرا وفقرًا في هذه الناحية. وابن خاقان أقرب منه إلى صفاء أسلوب الخطابة العربي المونق، ولهذا فقد كان كلامه أقرب من كلام صاحبه إلى نفوس معاصريهما؛ بيد أن هناك ناحيةً على أعظم جانب من الأهمية سبق فيها ابن بسَّام معاصريه بمراحل لا يُمارَى في بُعد مداها، تلك هي تفوقه على صاحبه في القدرة على التصوير وسعة الاطلاع الأدبي. وفي الواقع أنَّ صدر ابن بسَّام حوى من العلم ما لم يبلغ مداه إلا القلائل: فقد ألم بتاريخ العرب القديم وتمثَّله تمثلاً كاملاً، وحفظ أشعارهم وأمثالهم السائرة، في حين أن ابن خاقان لم يتعمق في هذه الناحية إلا قليلاً.

ومن ثم فإن القوة وجمال التعبير يعوزانه كلما وصل بالكلام إلى موقف

عسير، بل هو يتخبط في بعض الأحيان في مهاوي الجهل: وإن ابن بسَّام ليكثر من المقارنة بين شعر المحدثين (معاصريه) وشعر القدامى، ويشير إلى المواضع التي قلد فيها الآخرون الأولين، ويروي القارئ طرفًا من التاريخ الذاهب إذا دعت المناسبة إلى ذلك، مما يجعل كلامه أكثر غناء، بل ألطف وأخف على القلوب[١٧٧].

وقد اعتمد ابن بسَّام - فيما اعتمد عليه - على تاريخ منظوم للأندلس لأبي طالب عبد الجبار المتنبي، على غرار أرجوزة يحيى الغزال، وقد عاش أبو طالب في حدود سنة ١١٢٦/٥١٩ وكان من أهل جزيرة شُقر[١٧٨].

ف ٩١ - ابن خاقان (أبو نصر الفتح محمد بن عبيد الله القيسي)

أصله من «صخرة الولد» قرية على مقربة من قلعة يحصب[١٧٨] من أعمال غرناطة. كانت حياته اضطرابًا متصلاً، خرج إلى الحياة فقيرًا لا يملك من حطامها شيئًا، وكان مع ذلك مقبلاً على الخمر مسرفًا في ملذَّاته. وقد طاف بنواحي الأندلس مترددًا على «من يتعاطون الراح» من أولى الأمر يسألهم العطاء؛ وكان متهاونًا، فأُخرج مما كان يتولاه من أعمال الدولة. قال ابن الخطيب : «قال ابن عبد الملك [المراكشي]: قصد [ابن خاقان] يومًا مجلس قضاء أبي الفضل [عياض بن موسى بن عياض اليحصبي] مخمرًا، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر، فأعلم القاضي بذلك، فحده حدًّا تامًّا، وبعث إليه بعد ذلك بثمانية دنانير وعمامة. وقال الفتح يومئ لبعض أصحابه: عزمت على إسقاط اسم القاضي أبي الفضل من «القلائد»، فقال: لا تفعل، فإنَّ قصتك من الجائز أن تُنسى، وأنت تريد أن تتركها مؤرَّخة! إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والمنصب، فيسأل عن ذلك فيقال له، فيتوارث العلم بذلك الأكابر والأصاغر.

قال : فعلم صحة نصحه فأقر اسمه»(*).

وكانت بينه وبين ابن باجة الفيلسوف عداوة شديدة، قال ابن الخطيب: «وحدَّث بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجة أبي بكر - آخر فلاسفة الإسلام بالأندلس - ما كان من إزرائه به وتكذيبه إياه في مجلس أقرانه، إذ جعل يكثِّر ما وصله به أمراء الأندلس، ووصف حُليًّا - لوكانت! تبدر من أنفه دائمًا فضلة خضراء اللون، زعموا - فقال ابن باجة: «فمن تلك الجواهر هذه الزمردة التي على شاربك» فتلبَّسه في كتابه بما هو معروف»(*).

وقد بلغ من تمكن ابن خاقان من اللغة وقدرته على صياغة الكلام أنه عندما تعرض لابن باجة في «القلائد» نال منه بلسانه الحاد كل منال، ثم ألمَّ بذكره في «المطمح» بعبارات مديح جوفاء تطوي في ثناياها من الهجو اللاذع ما يربي على الهجاء الذي قاله فيه قبلا (*) (١٨٠). وقد توفي ابن خاقان مخنوقًا في فندق بأحد دروب مراكش في ٢٢ محرم ٥٢٩/١٣ نوفمبر ١١٣٤. ويذهب بعض الناس إلى أنَّ علي بن يوسف بن تاشفين هو الذي أوعز بقتله، في حين ذهب الآخرون إلى أنَّ نفرًا من أهل حاشية علي هم الذين دبروا قتله، لما آلمهم من نقده فبعثوا أحد غلمانهم فقتله(١٨١).

(*) ابن الخطيب: الإحاطة. وترجمة ابن خاقان ليست في نسختها المطبوعة في مصر، ولكنَّها واردة في مخطوطها بالمكتبة الأهلية في باريس، وعنه نقلها دوزي (أخبار بني عبَّاد جـ١، ص٢ -٣)، وعنه أخذتُ

(*) ابن الخطيب: الإحاطة. وترجمة ابن خاقان ليست في نسختها المطبوعة في مصر، ولكنها واردة في مخطوطها بالمكتبة الأهلية في باريس، وعنه نقلها دوزي (أخبار بني عباد جـ١، ص٢ -٣)، وعنه أخذتُ

(*) انظر (ف ١٠٦)

وقد رُويت لابن خاقان قطع من الشعر قليلة، وهي «وسط بعيد عن طريق الغث والسمين، وكان لا يتعنّي فيه ولا يتكلفه ولا يقصد قصده، وإنّ ذلك لعذر في عدم الإجادة»[١٨٢]، وكتب عن بعض الأمراء بعض المكاتبات؛ وَلَكِنَّ شهرته ترجع إلى كتابيه الجليلين «مطمح الأنفس ومسرح التانس»، و «قلائد العقيان ومحاسن الأعيان».

أما **الأول**: فقد قَصَرَه على أعيان الأندلس وذوي السماحة والظرف من أهله، وجعله «ثلاث نسخ: كبرى ووسطى وصغرى، يذكر فيها لنفرًا من الذين ذكرهم في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم»[١٨٣]، وقد طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٢هـ. أما «قلائد العقيان» (طبع في باريس سنة ١٨٠٦ وفي بولاق سنة ١٨٦٧) فهو تكرار للمطمح في بعض أجزائه، وقد قسمه إلى أربعة أقسام:

الأول :«في محاسن الرؤساء وأبنائهم ودرج أنموذجات من مستعذب أبنائهم».
والثاني: «في غرر حلية الوزراء وفِقَر للكتاب والبلغاء»
والثالث : «في لمع أعيان القضاة ولمح أعلام العلماء السراة»
والرابع «في بدائع نبهاء الأدباء وروائع فحول الشعراء».

وهدف ابن خاقان من تواليفه هو إيراد ما قاله من يلم بسيرهم من النثر الرصين والشعر البديع دون أن يقصد إلى إيراد سير حياتهم بالذات، ولهذا فتراجمه ناقصة؛ لأنه لا يذكر من تواريخ الناس إلا ما يتصل بما يورد من نظمهم ونثرهم، وقد خلط في بعض ما أورده من الحوادث، وتبعه في الخطأ نفر ممن أخذ عنه ممن أتى بعده.

وإذا كانت القيمة التاريخية لكتابيه قليلة، فإن قيمتها الأدبية عظيمة؛ وهما - إلى جانب «ذخيرة» ابن بسّام - أحسن ما ألّف الأندلسيون من النثر المسجوع. وقد أطنب بعض من ترجموا له في إطراء مواهبه الأدبية، فقال عنه ابن دُحية - مثلاً - في

المطرب: «وكان - رحمنا الله وإياه - مخلوع العذار في دنياه؛ ولَكِنَّ كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال»(*).

وكان ابن خاقان لا يحفل لشيء، حتى لقد نقل من «الذخيرة» فصولاً كاملة دون أن يشير إلى صاحبها، مما جعل ابن بسّام يشكوه إلى القاضي كما يقول ابن سعيد(١٨٤).

وقد وصل ابن الإمام (أبو عمر عثمان بن علي الإشبيلي المتوفى بعد سنة ٥٤٩/ ١١٥٥) «مطمح» ابن خاقان و «قلائده» بكتاب من نوعهما وفي أسلوبه في شعراء عصره هو «سمط الجمان وسقيط المرجان». وابن الإمام من أهل شلب، وقد سكن قرطبة وإشبيلية، وكتابه أشبه بذيل على «المطمح».

وفعل مثل ذلك أبو بحر صفوان بن إدريس بن عبد الرحمن بن عيسى التجيبي المرسي (٥٦١-٥٩٨/١١٦٤-١٢٠١) من أهل مرسية، وقد صنف كتاب «زاد المسافر» في تراجم كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري؛ إكمالاً لما كتبه ابن خاقان وابن الإمام، وأورد بعض ما قيل من الشعر في فضائل مرسية؛ وكان من تلاميذ ابن بشكوال، وقد جمع نظمه ونثره في كتاب سماه «عجالة المتحفز وبداهة المستوفز»(١٨٥).

ف٩٢- الشقندي (أبو الوليد إسماعيل بن محمد المتوفى سنة ٦٢٩-١٢٣٢)

يشبه الشقندي في «رسالته» المركيز سانتيلانا Al Marues de Santillana في كتابه المسمى Proemio، فهي تعتبر نموذجًا من نماذج النقد الأدبي. وأصله من شقندة أحد أرياض قرطبة، وكان مولعًا بما يُروى من التاريخ وما يُحكى من نوادر المؤلفين والشعراء، وكان ذا حظوة عند أبي يوسف يعقوب المنصور خليفة الموحِّدين،

(*) ابن دحية: المطرب، ورقة ٢٠.

وولي على قضاء بياسة وأُبَّذة ولورقة، وهو صاحب «الرسالة» المشهورة ذات القيمة الأدبية العظيمة[١٨٦].

وسبب إنشائه هذه الرسالة: أن مناقشة جرت بحضرة أبي يحيى بن أبي زكريا عامل سبتة الموحدي حول «التفضيل بين البَرَّين» (الأندلس والمغرب)، فانبرى أبو الوليد الشقندي الأندلسي وأبو يحيى بن المعلم الطنجي المغربي يتساجلان، كلٌّ يباهي بفضائل قطره، فرأى أبو يحيى أن يحسم المناقشة فقال: «الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بَرِّه، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعًا، وأرجو إذا أخليتما له فكركما صدر عنكما ما يحسن تخليده، ففعلا ذلك»[١٨٧].

وقد احتفظ لنا ابن سعيد بنص رسالة الشقندي، وأورد نصها المقري في «نفح الطيب». وقد بدأها بدحض حجة خصمه في القول بأن: المغرب أصل الملك والسلطان، وقارن بين دولة الموحدين وخلافتهم ودولة الأمويين وخلافتهم في الأندلس، وذكر كيف أفاض الشعراء من كل صقع في مديح أولئك الأخيرين وفاخر بمن أنجبت دولتهم من القواد، كالمنصور بن أبي عامر وموالي العامريين الذين خلّد الشعراء مآثرهم وأفاضوا هم على الشعراء الجزيل من نداهم، وألمَّ بذكر أبي غالب النحوي الذي أبى اعتزازه بمؤلفه وأمانته لعلمه أن يذكر في فاتحته أنه ألّف باسم مجاهد العامري صاحب دانية، ورفض ألف دينار «ومركوبًا وكُسًى» عُرضت عليه لقاء ذلك، وذكر رعاية ملوك الأندلس للآداب وأهلها، وضرب المثل ببني عباد.

ثم مضى الشقندي يعدد من أنجبه الأندلس من الفقهاء واللغويين والنحويين والفلاسفة والرياضيين والأطباء والمؤرخين والمؤلفين الذين تجلت قرائحهم عن درر أدبية، ونقاد الأدب ومن أطلعهم الأندلس من الشعراء الذين أبدعوا في كل فن من فنون الشعر (كالنسيب والمديح والهجاء)، وأبان من ظهر منهم من بين أهل كل طبقة من الناس (كالملوك والوزراء والنساء وغيرهم)، أولئك الشعراء الذين أنشئوا

من القصيد ما سارت بمديحه الركبان، وأحسنوا التعبير عن أدق العواطف. يذكر الشقندي ذلك كله في ثبت طويل يفيض حيوية، جمع فيه ألمع الأسماء وأحفلها معنى ودلالة.

ويذكر إلى جانب ذلك محاسن إشبيلية، ويتغنى بجمالها ويقول: «وإن تعرضتَ إلى ذكر البلاد وتفسير محاسنها وما خصَّها الله به وحرمه غيرها، فاسمع ما يميت الحسود كمدًا: أمَّا إشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المباني، وتزيين الخارج والداخل، وتمكُّن التمصر، حتى إن العامة تقول: لو طُلب لبن الطير في إشبيلية وُجد. ونهرها الأعظم الذي يصعد المدُّ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسُر وفيه يقول ابن سفر:

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزءًا فضم من الحياء إزاره

وزيادته على الأنهار كوَّن ضفتيه مطرزة بالمنَازِه والبساتين والكروم والأنشام، متصل ذلك اتصالًا لا يوجد على غيره. وأخبرني شخص من الأكياس دخل مصر - وقد سألته عن نيلها - أنه لا تتصل بشطيه البساتين والمنَازه اتصالها بنهر إشبيلية. وكذلك أخبرني شخص آخر دخل بغداد. وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مسرة، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناءٍ عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة»(*).

وقال بعد ذلك: «إن إشبيلية تحوي كل أدوات الطرب، كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والفنار (الفنار والقيّان والقبّان

(*) الشقندي: رسالة، برواية المقري، جـ٢، ص١٤٢ - ١٤٣، وقد أشار المؤلف إلى معنى هذه الفقرة، فأوردتها بنصها كنموذج لكلام أبي الوليد إسماعيل الشقندي.

أيضًا) والزلامي والشقرة والنورة - وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه - والبوق؛ وإن كان جميع هذا موجودًا في غيرها من بلاد الأندلس، فإنه فيها أكثر وأوجد. وليس في بر العدوة من هذا شيء، إلا ما جلب إليه من الأندلس، وحسبهم الدفُّ وأقوال «واليرا» (والبُرا أيضًا) وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقي البرابر....».

وذكَر قرطبة مجمع أهل العلم، وكيف قصدوها من كل صقع فتلقاهم ملوكها بالتكرمة والأفضال؛ وقال: «فهي كرسي المملكة في القديم، ومركز العلم ومنار التقى ومحل التعظيم والتقديم». وألم بذكر قواعد أندلسية مثل جيان وقال إنها: «لبلاد الأندلس قلعة، إذ هي أكثرها زرعًا وأصرمها أبطالاً وأعظمها منعة»، ومالقة «التي قد جمعت بين منظر البر والبحر، بالكروم المتصلة التي لا تكاد ترد فيها فرجة لموضع غامر، والبروج التي شابهت نجوم السماء كثرة عدد وبهجة ضياء»، ومرسية «حاضرة شرق الأندلس، ولأهلها من الصرامة والإباء ما هو معروف مشهور»، وبلنسية «التي تعرف بمطيَّب الأندلس، ورصافتها من أحسن متفرجات الأرض»، وميورقة ومالها من محاسن وفضائل، بخلاف ما نجده في المغرب من فقر في نواحي الحضارة وجدب طبيعي[١٨٧].

والرسالة نموذج جليل من عرض العلم الواسع في نسق لطيف، وهي تثير الإعجاب بأسلوبها وروحها الفكِه. ثم إنها ميزان صادق للنقد، فقد أيد الذين جاءوا بعد الشقندي آراءه في الأعلام والمؤلفين الذين اتخذهم مثلاً.

وقد أجمل وصفها غرسية غومس بقوله: «إن المختارات القليلة التي يقدمها لنا الشقندي من الشعر الأندلسي جديرة بالذكر والتقدير، لما اجتمع لها من الكمال المصفى، وما يتجلى فيها من التفكير والاتزان في الجمع بين القدامى والمعاصرين من كافة الطبقات، وبما نلحظه فيها - قبل كل شيء - من صدق الحكم ونفاذه في ناحية الجمال الفني».

ف٩٣- ابن الخطيب والمقري

ونذكر ممن ألّف في تاريخ الأدب في العصر الغرناطي محمد بن علي بن هاني (المتوفى سنة ١٣٣٢/٧٣٢) وهو من أهل سبتة وكان يلقب «بالخطيب» لفصاحته، وقد صنف مؤلفًا عن شعراء القرن السابع الهجري عنوانه «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة» وكتبًا أخرى في الفقه؛ بيد أن أهم من ألّف في هذا الباب في ذلك العصر هو لسان الدين بن الخطيب الذي ألمنا بذكره (ف٨١).

ومن الحق أن نذكر في هذا المقام المقّري المشهور (أبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العيش)، وإن لم يكن أندلسيًّا أو من أهل العصر الذي نتحدث عنه، إذ هو من أهل القرن الحادي عشر الهجري، توفي سنة ١٠٤١/١٦٣٢.

وُلد المقّري في تلمسان؛ ودرس في فاس، و أُولع بطلب آداب الأندلسيين؛ وقد جمع في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»[١٨٩]. قطعًا من مؤلفات سابقة ضاع معظمها، أرسلها من غير نظام؛ وَلَكِنْ في دقة وضبط حسن. والجزءان الأولان مقدمة للثالث والرابع، اللذين يدوران على ابن الخطيب وحده. ويضم الجزءان الأولان ثمانية أبواب:

الأول: «في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيرها... وذكر بعض مآثرها مجلوة الصور وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور المستمدة من أضوائها».

والثاني: «في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد، وفتحها على يدي موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد..»، مع الإلمام بذكر ولاتها قبل بني أمية.

والثالث: في ذكر خلفائها وملوكها «وسرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز سامي العماد».

والرابع: «في ذكر قرطبة، التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة،

وجامعها الأموي ذي البدائع الباهية الباهرة، والإلمام بحضرتي الملك الناصرية الزهراء والعامرية الزاهرة...».

والخامس: «في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق».

والسادس: «في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل الشرق».

والسابع: «في نبذة مما منَّ الله به على أهل الأندلس من توقد الأذهان».

والثامن: «في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة».

وأهمية كتاب المقّري هي أنه نقل إلينا فقرات هامة من تاريخ الأندلس ضاعت أصولها[١٩٠].

وقد نشر الجزءين الأولين من «النفح» أربعةٌ من المستشرقين هم : ر. دوزي R. Dozy، ج . دوجا G Dugat، ل . كريل L . Krehl، و . رايت W.Wright في لايدن بين سنتي ١٨٥٨ و ١٨٦١ وجعلوا لهما عنوانًا فرنسيًّا أدل على مادتهما وهو :

. Analectes sur I'histoire et la litterature des Arabes d' Espagne.

ويُذكر الكتاب في المراجع الأوروبية بلفظ Analectes فقط. والطبعة مصدَّرة بمقدمة فرنسية وافية عن المقّري و «نفحه» بقلم أحد الناشرين، وهو جوستاف دوجا، وقد نشر النفح كذلك كاملاً في بولاق سنة ١٨٦٢، وأعيد طبعه في القاهرة بإشراف الشيخ محيي الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩. وترجم جايانجوس قطعًا كبيرة منه إلى الإنجليزية ونشرها باسم:

The History of the Mohammeddan Dynasties in Spain extracted from Al-makkari.. translated by Pascual de Gayangos. London 1840 - 1843. 2 vois.[١٩١]

(د) تواريخ النواحي

ف٩٤ - أهم المؤلفات في هذا الباب

نجد فيما بين أيدينا من المراجع ذكرًا لكتاب «مجزًا في أجزاء كثيرة في أخبار ريّة وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها[١٩٢]»، تأليف إسحاق بن سلمة بن وليد القيني الليثي من أهل ريّة (يكنى أبا عبدالحميد، المتوفى حوالي ٣٩٩/١٠٠٩)، وكتاب آخر في تاريخها من تأليف إبراهيم بن وزمور الحجارى - وهو والد صاحب المسهب الذي أشرنا إليه - وقد عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس الهجريين؛ وقد عهد إليه المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ونواحيها بوضع كتاب في شعراء وادي الحجارة وناثريها ومؤرخيها، فألّف كتاب «مغناطيس الأفكار فيما تحتوي عليه «مدينة الفرج» من النظم والنثر والأخبار»، يعتبر تاريخًا حقًا لوادي الحجارة في صورة تراجم.

وكتب محمد بن علقمة (محمد بن الخلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، ٤٢٨-٥٠٩/١٠٣٦-١١١٦) كتابه المعروف «بالبيان الواضح في الملمّ الفادح»، سرد فيه تاريخ بلنسية في أيام السّيد القمبيطور، وتغلبه عليها ومحنتها على يديه[١٩٣]. وقام الفقيه المحدث ابن عسكر (أبو عبد الله محمد بن علي بن خضر الغساني المالقي، ٥٨٤-٦٣٦/١١٨٨-١٢٣٨) بوضع كتاب تاريخ مالقة، «وكان فقيها مجيدًا لعقد الشروط، حافظًا للغة أديبًا بليغًا مشاركًا في العربية وقرض الشعر»[*][١٩٤].

وألّف أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي[١٩٥] (٥٨٢-٦٥٨/١١٨٦-١٢٦٠) كتابًا في فضائل ميورقة وتاريخها؛ وقد ولد المخزومي في جزيرة شقر وكان شاعرًا متبحرًا في التاريخ والأخبار، دخل في خدمة الموحدين فاستكتبه «الرشيد»،

(*) ابن الأبار: تكملة، رقم ١٠١١.

ثم ولاه قضاء [قبيلة] هيلانة، فقضاء سلا، ثم قضاء سبتة، ثم انتقل إلى تونس ودخل في خدمة الحفصيين، وقلدوه المناصب في بجاية وتونس، وله تأليف «في كائنة ميورقة وتغلب العدو عليها»، «نحا في الخبر عنها منحى الإمام الأصفهاني في الفتح القدسي». ثم ألّف مختصرًا لكتاب ابن صاحب الصلاة في تاريخ الموحدين، وله وعظ على طريقة ابن الجوزي.

وتجرد أبو بكر بن خمسين - ابن أخي ابن عسكر آنف الذكر - لكتابة تاريخ [الجزيرة] الخضراء، فلما فرغ منه وصل كتاب عمه ابن عسكر في تاريخ مالقة، وكتب ابن الحاج البلفيقي (محمد بن محمد بن خلف بن سليمان بن حزب الله المتوفى سنة ١٣٧٢/٧١٥) «تاريخ المرية وبجانة» (*). وكان البلفيقي من شيوخ ابن الخطيب، وقد وضع كتابًا عن زهاد الأندلس اسمه «كتاب الإفصاح عمن عُرف بالأندلس من الصلاح» ومعجمًا بشيوخه[١٩٦].

ووضع ابن خاتمة (أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد الأنصاري، ٧٢٣-٧٧٠/ ١٣٢٣-١٣٦٩) كتابًا وصف فيه الطاعون الذي اجتاح الدنيا في سنوات ١٣٤٧/٧٤٨ و ١٣٤٨/٧٤٩ و ١٣٤٩/٧٥٠، والذي يشير إليه بوكاشيو في أول كتابه «الليالي العشر Decamerone »؛ واسم كتاب ابن خاتمة «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»[١٩٧].

(*) في الأصل «باجة»، ولكن سيمويت قرأها «بجانة» وهو أقرب إلى المعقول.